



مكتبة
بغداد

د. رنّاقبّاني

رسالة إلى الغرب

ترجمة : د. صباح قبّاني



* رسالة إلى الغرب

* د. رنا قباني

* ترجمة: د. صباح قباني

* الطبعة الثانية 2000 م

* جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب: 9503 - هاتف: 3320299 - 2231055

فاكس: 3335427 - بريد الكتروني: ahali@cyberia.net.lb

* التوزيع في جميع أنحاء العالم:

* الأهالي للتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب: 9223 - هاتف: 2213962

فاكس: 3335427 - تلكس: 412416

موافقة الرقابة: ١٨٩٠٤

د. رنا قباني

رسالة إلى الغرب

ترجمة: د. صباح قباني

حظي هذا الكتاب باهتمام واسع في أرجاء أوروبا وأميركا منذ أن نُشر بالانكليزية للمرة الأولى في لندن عام 1989 ثم تُرجم فيما بعد إلى عدد من اللغات الأوروبية والآسيوية. ومردُّ هذا الاهتمام يرجع إلى أنّ الكاتبة تحدّثت بنبرة هادئة وسلسة عن لمحات من سيرتها الذاتية وعن تجربتها كامرأة عربية مسلمة تعيش في الغرب مما جعلها منذ طفولتها تتقلّب بين عالمين، وثقافتين، ونهجين من الحياة.

وحسب الكاتبة أنها نبّهت إلى خطر ذوبان العربي والمسلم في المجتمعات الجديدة وأنها حدّرت من الانسلاخ عن الجذور ومن التنكّر للتراث.

العنوان الإنكليزي للكتاب

Letter to Christendom

صدر هذا الكتاب:

- باللغة الإنكليزية عن دار (فيراغو)، لندن، 1989.
- باللغة الهولندية عن دار (ويتجيفريدج كونتاكت)، أمستردام، 1989.
- باللغة الدانماركية عن دار (تيديرنه سكفتسر)، كوبنهاغن، 1990.
- باللغة الألمانية عن دار (ايكون تاشنبوخ فيرل)، بون، 1991.
- باللغة العربية عن دار (الآداب)، بيروت، 1991. (الطبعة الأولى).
- باللغة الإندونيسية عن دار (بوستاكا أوتاما غرافيتي) بأندونيسيا. 1992.
- باللغة التركية عن دار (باغلام)، استامبول. 1993.
- باللغة العربية عن دار (الأهالي)، دمشق 2000 (الطبعة الثانية) مع تصدير جديد بقلم المؤلّفة.

تصدير جديد خاص بالطبعة العربية الثانية

إن هذا الكتاب الصغير الذي ألفته بالإنكليزية قبل أحد عشر عاماً، من وجهة نظر المواطنة الأوروبية التي صرّتها وليس المواطنة العربية التي سبق وكتبتها منذ الولادة، كان له قدرة غريبة، ولو أنها حزينة، على التنبؤ بأحداثٍ قُيِّض لها أن تقع بعد طبعه بسنوات.

فعندما أشرت، بصورة عابرة، إلى محنة مسلمي ألبانيا المنكودي الحظ (الذين كانوا يوم وضعت الكتاب عام 1989 يعانون من شيطان التطرف القومي الصربي المتنامي) كنت أضع يدي على تحاملٍ مغرض أخذ سبيله في قلب أوروبا دون أن يكون أغلب الناس قد استشعروه بعد. وقُدِّر لهذا التحامل، في غضون سنوات قلائل، أن يزلزل حياة ملايين الناس عندما تسبّب في خلق ما يمكن أن أسميه المحرقة الأوروبية الثانية. أما الضحايا هذه المرة فكانوا مسلمين جرى تجميعهم في معسكرات اعتقال، وتعرّضوا لصنوف من التعذيب الوحشي والاعتصاب بالجملة، وتمّ الإجهاز عليهم آخر الأمر في عملية إبادة منهجية سبق التخطيط لها وألقيت جثثهم التي تقدّر بعشرات الألوف في مقابر جماعية. وكان الذنب الوحيد الذي اقترفوه هو أنهم ولدوا مسلمين.

والعجيب أنه عندما أتيت لي أن أتجول في أرجاء يوغوسلافيا السابقة، وجدتُ أنّ مسلمي البلقان هم أكمل اندماجاً في مجتمعهم من أقرانهم المسلمين في المجتمعات الأوروبية الأخرى، كما كانوا الأكثر علمانية في

تفكيرهم وفي نمط حياتهم، بل كانوا من حيث المظهر لا يختلفون في شيء عن معديهم الصرب والكروات. ومن هنا استبدّ بي القلق ورحت أتساءل: إذا كان هؤلاء المسلمون الدمثون ذوو العيون الزرقاء والشعر الأشقر يلقون مثل هذا المصير السيء في وسط أوروبا فما الذي ينتظرنا نحن ذوي الهياكل المختلفة والعلامات الدينية الفارقة؟

ولما كنتُ أعيش في أوروبا الغربية منذ عشرين سنة، فقد هزّني من الأعماق المصير المأساوي الذي أصاب أقراني المسلمين في البوسنة وكوسوفو ثم في الشيشان. فأولادي، والذين هم مسلمون أوروبيون أيضاً، لا يختلفون في السنّ عن أولئك الصغار المذعورين الذين كان المسلّحون المرعبون ينقضّون عليهم كالوحوش الضارية فيقتلونهم من أسرّتهم وبيوتهم ويكدسونهم في شاحنات المواشي وسط الليل البهيم ويسوقونهم إلى غياهب المجهول. وهنا تساءلت فيما إذا كنت سألقى مصيراً أفضل من مصير الأمهات المسلمات في أوروبا الشرقية اللواتي كنت أشاهدهن على شاشة التلفزيون وقد عجزن عن حماية صغارهن؟ وهل سيكون بمقدوري أن أصدّ موجة الكراهية الدينية والعنصرية إذا ما اجتاحت أوروبا الغربية دون أن يعترضها أحد، وبخاصة أن هذه الكراهية آخذة في الجيشان الخفيّ تحت السطح؟

إن عدد المسلمين الأوروبيين يزيد على عشرين مليوناً، وهم أسرع الأقليات الدينية نمواً، إلا أنك حينما جال طرفك في أرجاء هذه القارّة ذات المظهر الحضاري فستجدهم يعانون ويتألّمون. إنهم أفقر الناس وأسوأهم سكناً في أوروبا، ويبلغ معدّل البطالة في صفوفهم ضعف معدلها بين باقي السكان بل غالباً ما يصل هذا المعدل إلى ثلاثة أضعاف. ولم يتأتّ هذا الوضع بمحض المصادفة وإنما كان النتيجة

المباشرة لما يمارسه أرباب العمل من تحامل مغرض لا يردعه قانون، وبسبب اللامبالاة المذهلة في موقف الحكومات الأوروبية التي لا تفعل ما من شأنه أن يعدّل الميزان الجائر بحق المسلمين.

ففي معظم أقطار أوروبا الغربية، بما فيها بريطانيا، لا يزال المسلمون غير متساوين مع غيرهم أمام القانون، ولا يملكون أية حماية ضد التمييز الديني مهما كان سافر الوقاحة، ولا يتمتعون إلا بالقليل من المساواة في شؤون التعليم أو في تمويل مؤسساتهم التربوية. ولم يحصل المسلمون البريطانيون إلا مؤخراً على تمويل حكومي لواحدة فقط من مدارسهم وذلك بعد معركة مريرة وطويلة تمّ كسبها في آخر الأمر أمام محكمة عليا أوروبية، لا بريطانية، على الرغم من أن البريطانيين البروتستانت والكاثوليك واليهود يتمتعون بمثل هذا التمويل، كأمر مفروغ منه، للآلاف من مدارسهم المنتشرة في أرجاء البلاد.

وبعد أن نشرت الصحافة البريطانية عشرات المقالات المتعالية التي تدّعي أن الجالية الإسلامية ليست مؤهلة للحصول على تمويل حكومي لمدارسها فقد شعرت بنشوة قصوى عندما قرأت أن مدرسة (محمد زكريا) للبنات المسلمات في (برادفورد)، وهي واحدة من أفقر المدارس التي لا تزال محرومة من أي تمويل حكومي، قد حققت طالباتها في امتحانات الشهادة الثانوية العليا نتائج باهرة كانت أفضل بما لا يُقاس مما حققه طلاب مدرسة (إيتون) التي هي مدرسة النخبة، والأعلى أجوراً، والأكثر غنى وتميزاً في طول بريطانيا وعرضها!

ومما يلاحظه المرء أنّ غالبية الهجمات ذات الدافع العنصري التي تقع في أوروبا وتؤدي إلى القتل والإيذاء الجسدي إنما تستهدف المسلمين: فهي موجهة ضد الذين هم من أصل باكستاني وبنغلاديشي في

بريطانيا، وأفريقي - شمالي في فرنسا، ومغربي في بلجيكا وإسبانيا، وإندونيسي في هولندا، وتركي وكرد في ألمانيا، ولا تستهدف «الأجانب» من المهاجرين الجدد الذين يرطنون بلغاتهم القومية المختلفة بل هي موجهة ضد أوروبيين من الجيلين الثاني والثالث والذين هم، كأقرانهم من البوسنيين والكوسوفيين والشيشانيين، ضحايا كراهية دينية متشجعة ذات جذور تاريخية عميقة ظلّ الغرب المسيحي يضمها ضد الإسلام طيلة قرون عديدة وما فتئت تمدُّ رأسها في داخل الكنائس على امتداد العالم بدءاً من الفيليبين وانتهاءً بالبلقان.

ومن المؤسف أن أقول إن الكنائس الأرثوذكسية الرسمية في اليونان وأوروبا الشرقية وروسيا كانت متواطئة في حملة الإرهاب ضد المسلمين. ويكفي إيراد مثل واحد فقط من بين مئات الأمثلة التي وثّقها بدقة متناهية مراقبو النزاع البلقاني: فقد تفوّقت الكنيسة اليونانية حتى على قرينتها الكنيسة الصربية حين كَرّمت (رادوڤان كاراديتش) مجرم الحرب الصربي في البوسنة ومنحته أرفع لقب ديني لديها بعد أن أدانته محكمة (لاهاي) بارتكاب الكثرة الكاثرة من جرائم الحرب. كما كان (سلوبودان ميلوسوفيتش) يفعل ما بوسع كمي يظهر في الصور الفوتوغرافية واقفاً إلى جانب أساقفة الكنيسة الأرثوذكسية الصربية. وعندما انقلب هؤلاء عليه في النهاية لم يكن ذلك بدافع أخلاقي منهم أو اشمئزازاً من جرائمه بل سخطاً عليه لأنه اندحر عسكرياً أمام قوات حلف الأطلسي في كوسوفو! ولم يكن (فلاديمير بوتين)، راسبوتين روسيا الجديد، ليستطيع تمزيق شعب بكامله ومحو عاصمة مثل (غروزني) لو لم يحصل من الكنيسة الأرثوذكسية الروسية على مباركتها الصامتة لحملة الصليبية الدينية. ولكننا لانجد أحداً يتكلم عن

بروز مثل هذه «الأصولية» المسيحية أو ينتقدها في وسائل الإعلام الدولية التي نراها تسهب في الحديث عندما يتعلق الأمر بمظاهر «الأصولية» الإسلامية.

ولعل ثمة من يقول إن القمع الغبي للدين أثناء الحقبة الشيوعية قد تسبب إلى حد ما في موقف الكنائس الأرثوذكسية العدواني وفي الفظائع المرعبة التي ارتكبت مؤخراً في أوروبا الشرقية وفي روسيا. بل قد يكون هناك من يقول إن بلداً كالليونان الذي لم «يتحرر» إلا مؤخراً من تاريخه العثماني ينفر من الاعتراف بما أدخلته الثقافة الإسلامية من لمسات حضارية على كل ما هو إغريقي في ميادين الفلسفة والعمارة والصنائع والطعام، ولذلك أصبح هذا البلد يعاني من عقدة «أوديبيّة» هائلة حيال الإسلام يكون من شأنها أن تحوّلته، كما «أوديب»، إلى قاتل أعمى.

والأمر ذاته قد يُقال بالنسبة إلى بلد آخر مثل إسبانيا الذي نجمت حضارته بكاملها عمّا رفده بها العطاء الإسلامي. ولكن يبدو أنه يصعب على هذا البلد أيضاً الاعتراف بمثل هذا الفضل فيؤثر بدلاً من ذلك أن يستعيد بصورة فجّة ذكرى أيام حروب الاسترداد الكاثوليكية في احتفاليات تمثيلية دينية تتكرر باستمرار في الأرجاء الإسبانية وتُقدّم خلالها مشاهد الكاثوليك المنتصرين وهم يقتلون دميّ تمثّل المسلمين المندهرين فيحتاج المتفرجون الصاخبون ويتهجون بهذه المشاهد تماماً مثلما يهتاجون ويصخبون ويتهجون بروية الدماء النازقة في حلقات الصراع مع الشيران!

ولو أننا أخذنا جدلاً بكل تلك التفسيرات، فكيف تفسّر البلدان الأوروبية الأكثر تحرراً، وازدهاراً، وعلمانية، طريقة معاملتها للأقليات المسلمة التي تعيش بين ظهرانيها؟

لقد أصبح من الواضح أنّ الاعتداءات العنصرية والدينية التي تستهدف المسلمين قد غدت وباءاً مستوطناً في معظم المدن الغربية، ولاتنكف وتيرتها تتسارع باستمرار. ومما يلفت النظر هو موقف اللامبالاة الذي يتخذه رجال الشرطة حيال تلك الاعتداءات وتقصيرهم، بل لنقل عدم رغبتهم، في القبض على المعتدين. ويصبح المرء أقل استغراباً عندما ينكشف له أن قوات الشرطة نفسها غدت بؤراً للتحامل العنصري والديني. ففي بعض الحالات، كما في الاعتداء المشين على المسلمين في (روستوك) بألمانيا، وقف رجال الشرطة موقف المتفرج المتغافل بينما كان الألمان الحليقو الرؤوس يسكبون البنزين على النساء والأطفال الأتراك ثم يضرمون فيهم النار؛ بل تبين في تحقيق لاحق أن بعضاً من هؤلاء الشرطة كانوا متورطين فعلاً في ذلك الاعتداء.

وقبل ستة أعوام هزّت بلجيكا فضيحة اعتداء جنسي على الأطفال وُجّهت فيها أصابع الاتهام إلى ساسة ورجال شرطة وفاحت منها رائحة فساد وجرائم يستحيل تصورها. فبعد أن اختفى ثمانية أطفال بلجيكين على مدى عدة سنوات، تبين أنهم كانوا قد اختطفوا وتعرضوا للدعارة الجنسية وللتعذيب، وحُبسوا في زنانات تحت الأرض حيث مات بعضهم من الجوع والإيذاء الجسدي، وقُتل آخرون، وتمّ إنقاذ عدد قليل منهم في نهاية المطاف.

ولمّا انتشر الخبر، خرج إلى شوارع بروكسل ربع مليون بلجيكي للتظاهر ضد نظام سياسي وأخلاقي شرير. غير أن المتظاهرين أنفسهم كانوا مصابين بالعمى العنصري والديني.

ذلك أنه كانت هناك طفلة بلجيكية تاسعة عمرها تسع سنوات تعرّضت هي الأخرى للاختطاف وللإعتداء الجنسي ثم اغتيلت. إلاّ أنها

لسوء حظها كانت مسلمة من أصل مغربي اسمها لبنى بن عيسى، فلم يظهر وجهها مع وجوه الضحايا الآخرين الذين عمّم البلجيكيون صورهم في ملصقات نشرها بالملايين على الجدران وزجاج السيارات وعبر نشرات التلفزيون بهدف إثارة الضمير الوطني.

وعندما ذهبت الأم المغربية المفجوعة بطفلتها إلى مركز الشرطة للإبلاغ عن اختفاء ابنتها، استهزأ بها ضابط المركز وأجابها باستخفاف بأنه قد يكون والدها أعادها إلى المغرب حيث رتب لها زواجا هناك! وجاء في تحقيق برلماني لاحق أن رجال الشرطة أنفقوا من الوقت في موضوع اختفاء لبنى أقل بكثير مما ينفقونه عادة في البحث عن «محفظة مفقودة»! أما جسد الضحية الصغيرة، وحياتها، وأحزان أبويها وغضب أفراد الجالية المغربية، فلم يكن ذلك كله ليعني شيئا في حسابات الشرطة البلجيكية. وحين تم العثور بعد أربع سنوات من مقتل الطفلة على بقايا عظامها وجرى استخراجها من تحت التراب والتعرف عليها، كان يتعين أن تُسحق تلك العظام إلى المغرب لتُدفن هناك نظراً لأنّ بلجيكا البلد الذي وُلدت فيه لبنى وحملت جوازه خلال عمرها القصير يخلو من مكان يمكن أن يُسمّى مقبرة إسلامية.

غير أن المسلمين أصبحوا اليوم جزءاً لا يتجزأ من أوروبا على الرغم من كل تلك الأهوال والمآسي بل لنقل إنهم أصبحوا كذلك بسبب هذه الأهوال والمآسي. فعندما شبت النار في ملهى سويدي ودمّرتة عن آخره تبين أن تسعة من بين الشبان الثلاثة والتسعين الذين قضوا في هذا الحادث وهم يرقصون على أنغام الموسيقى الحديثة كانوا مسلمين سويديين شيّعتهم أمهاتهم السويديات المحجبات.

وكان يحلو للجبهة الوطنية في فرنسا ولزعيمها الغوغائي الكريه (جان ماري لويين) القول بأنه يجب إعادة مسلمي فرنسا الأربعة ملايين إلى بلدان أجدادهم المهاجرين طالما أنهم لا يستطيعون أن يصبحوا «فرنسيين» ويستعصي عليهم «إنشاد المارسييز». ولكن المشهد مالبت أن تغتير. فها هو ابن أحد أفقر أحياء (مرسيليا) المواطن الفرنسي المسلم (زين الدين زيدان) يتمكن من أن ينتزع لفرنسا كأس العالم بكرة القدم مع أقرانه الفرنسيين الذين كان تعدد ألوان بشرتهم يعكس تنوع ألوان الناس في فرنسا المعاصرة. وعندما وقف أفراد هذا الفريق الفائز وقد تأبطوا أذرع بعضهم بعضاً ليصدقوا بالمارسييز كان أدأؤهم لهذا النشيد الوطني أروع ما سمعته الآذان منذ الثورة الفرنسية. ومن تملّى جيداً ذلك المشهد أدرك بشكل واضح أن شيئاً ما قد بدأ يوتّي ثماره في نهاية المطاف. فبين عشية وضحاها ما لبث السياسيون المراهنون على برامج عنصرية أن خسروا الكثير من شعبيّتهم.

ولكن الأهم من ذلك هو أن انتصار (زيدان) كان بمثابة رسالة تقول إن المستقبل سيغدو أفضل لأبناء مسلمي أوروبا وأن الأجيال القادمة المفعمة بالموهب والطاقات سوف تعاكس الموجة السائدة وتفتح الأبواب مشرّعة مهما جهد أولئك الذين يكرهون الأجانب في أن يقوها موصدة. إنها مسيرة قد بدأت فعلاً ولا يمكن إيقافها، وهي سوف تعيد تعريف معنى الإسلام الأوروبي وتؤثّر فيه تماماً مثلما يقوم المسلمون بإعادة تعريف أوروبا والتأثير فيها.

وها نحن نرى أن بعض أهم مواهب أوروبا التي هي محطّ الاهتمام والجدل إنما هي مواهب مسلمة. ففي بريطانيا مثلاً نجد: المهندسة المعمارية الحدائثية زها حديد، والفنّانين المعاصرين منى حاطوم ورشيد آرايين، ومصمّمي الأزياء الموهوبين رفعت أوزبك وحسين شالايان،

والملاكم المتوهج نسيم حميد (البرنس)، وعالمة الاجتماع المرموقة ياسمين عليهاي براون، والسينمائيين اسماعيل ميرتشت ووارث حسين. فهؤلاء جميعاً هم مسلمون كما أن معجزة الرياضيات التي أدهشت بريطانيا هي الفتاة البريطانية المسلمة زليخا يوسف.

واليوم قد لا يكون المسلمون يحظون بعد بالتمثيل البرلماني الذي تؤهله لهم أعدادهم وإسهاماتهم، وقد لا تكون لديهم حتى الآن مجموعات ضغط ونفوذ سياسي كافٍ للتأثير على المجالس التشريعية والحكومات كي تمنحهم حقوقاً أكثر وأفضل، كما أنهم لا يملكون الوزن اللازم في وسائل الإعلام والصحف التي تشكل الرأي العام؛ ولكن كل هذا لا بدّ آتٍ عندما تضع الأجيال المسلمة القادمة على محك الاختبار ادعاءات أوروبا بأنها قارة متسامحة، وليبرالية، ولا تفرّق بين واحد وآخر من مواطنيها، وأيضاً عندما يرفض أفراد هذه الأجيال الجديدة أن يكونوا مواطنين من الدرجة الثانية في بلادهم مثلما كان آباؤهم فيها من قبل.

عندما كتبتُ (رسالة إلى الغرب) لم أكن أنظر إلى نفسي كامرأة متدينة على وجه التحديد، فأيماني كان مسألة شخصية لاتعداني ولاتنسحب مطلقاً على حياتي العامة. غير أن العيش في بريطانيا، حيث تفجّرت، كما البراكين، مواقف مغرضة كانت خامدة لزمان طويل، دفعني إلى أن أقرر الخروج على الناس كامرأة مسلمة بعدما رأيتُ أن ديني أصبح عرضة لتهجمات قوى سياسية ذات مصلحة في أن يبقى المسلمون مسحوقين.

وهكذا رحّتْ أنشط في مجال تحسين درجة الوعي في بريطانيا حيال كل ما له صلة بالإسلام، وقمت بكتابة وإلقاء العديد من

المحاضرات تناولت فيها مواضيع شتى في هذا المجال. وقد كان هذا النوع من العمل الذي اضطلعت به مع كثيرين وكثيرات غيري هو الذي ساعد علي صياغة عبارة «مسلم بريطاني»، كما أنه حوّلنا إلى جماعة أكثر بروزاً وتلاحماً.

ولما أصبح عملي في الإذاعة والتلفزيون يصل إلى جمهور أوسع من المستمعين والمشاهدين رحّت أتلقي طوفاناً من رسائل كتبها شبان وشابات مسلمون يقولون فيها بأنني ساعدتهم في أن أجعلهم يشعرون بالاعتزاز والفخر بهويتهم الدينية، وهو أمرٌ كانوا يجدونه صعباً دائماً ليس فقط بسبب ما يواجهونه من تحامل مغرض، ولكن لأن بريطانيا لم تكن تيسر أمامهم الفرص كي يبرزوا كمسلمين في أي مجال من مجالات الحياة العامة.

وعندما أعدت قراءة هذا الكتاب الصغير كي أكتب تصديراً جديداً خاصاً بطبعته العربية الثانية، وذلك بعد مرور أحد عشر عاماً على صدوره، بدا لي كم هو بسيط وعفوي وأمين. ولذلك يصعب عليّ اليوم أن أصدق كيف استطاع هذا الكتاب على بساطته أن يخلق كل تلك الضجة التي ثارت حوله عند نشره لأول مرة في بريطانيا، كما يصعب عليّ أن أفهم لماذا هاجمني النقاد الذين تحدثوا عنه في صحافتها بما فيهم سلمان رشدي الذي كتب عنه بشكل هستري. ومن العسير عليّ أيضاً أن أعرف لماذا استنكر ناشرو الكتاب اليساريون التقدميون - أصحاب دار (فيراغو) للنشر - المناصرون لحقوق المرأة وجهة نظري بتلك الحدة فلم يبذلوا أي جهد للدعاية له حين صدر، بل إنهم سرعان ما أحجموا عن إعادة طبعه على الرغم من أن الطبعة الأولى منه كانت قد نفذت في

غضون أساييع قليلة وكان الطلب عليه يتزايد باستمرار! ولأزال، حين أتذكر تلك الأيام الأولى، تعاودني المرارة ذاتها التي انتابتنا، نحن المسلمين، عندما كنا نعمل جاهدين لشقّ درب لم يكن له وجود من قبل ولا معالم.

ولكن لا يزال علينا اليوم أن نركب الصعاب لننهض بمهمة ضخمة وشاقة لإنقاذ ديننا أولاً من أولئك الذين يريدون من داخله أن يحجروه ويحيلوه إلى عقيدة طقوسية قمعية؛ كما أن أماننا ثانياً مهمةً لانتقلُ ضخامة وهي أن نجعل الآخرين يفهموننا ويحترمونا بشكل أفضل في مناخ دولي يؤثر أن ينبذنا ويقمعنا أو أن يدفعنا إلى الاقتتال فيما بيننا كي تُمنى مجتمعاتنا بخسائر جسيمة لا يعرف مداها أحد. ومن هنا ينبغي علينا ألاّ يساورنا أي وهم وألاّ نخطئ التقدير، فنحن لما نملك بعد ما يسمح لنا بالرضا عن الذات.

إن وقت العمل قد بدأ الآن.

د. رنسا قباني

لندن - تموز/ يوليو 2000

تصدير الطبعة الأولى للترجمة العربية (1991)

تتابع الدكتورة رنا قباني في هذا الكتاب حديثها الذي بدأته في كتابها «أساطير أوروبا عن الشرق - لفقّ تَسُدُّ»^(*) الذي صوّرت فيه الرؤية الغربية المشوّهة للعرب والإسلام والتي كان أساسها، في القرون الماضية، التلفيق، والتجني، والافتراء.

أمّا الذي دفع الكاتبة إلى وضع كتابها الجديد «رسالة إلى الغرب» فهو ما رأته في هذا الغرب، الذي تعيش فيه، من إمعان في ذلك التشويه ومن تحيّنٍ للفرص كي يسدّد الغرب نحونا سهامه الجاهزة الكثيرة ذات السمّ الخبيث. وكانت إحدى هذه الفرص قضية سلمان رشدي وآياته الشيطانية التي تذرّع بها الغرب ليشنّ على العرب المسلمين حملة مسعورة ظالمة بدعوى الدفاع عن الكاتب وكتابه، وعن الفكر الحرّ. ولكنّ الذي استبان حقاً هو أنّ عداوة الغرب للشرق لم تتمّ فصولاً، وأنّ سيوف الصليبية لا تزال مشهرةً في وجوهنا مثلما كانت عليه في القرون الخوالي.

لقد حظي كتاب الدكتورة قباني باهتمام واسع في أرجاء أوروبا وأميركا منذ أن نُشر بالإنكليزية في لندن عام 1989، وتُرجم إلى عدد من اللغات الأوروبية الأخرى. وكان مردُّ هذا الاهتمام أنّ الكاتبة تحدّثت بنبرة هادئة، سلسلة، بعيدة عن التشنج والغوغائية، عن استمرار ذلك الصراع من خلال لمحات من سيرتها الذاتية، ومن منطلق أنها امرأة

(*) منشورات دار طلاس، دمشق 1988، ترجمه عن الإنكليزية د. صباح قباني.

عربية مسلمة تعيش في الغرب، فَرَوَتْ لأهل الغرب تجربتها التي جعلتها منذ طفولتها الأولى تتقلّب بين عالمين، وثقافتين، ونهجين من الحياة، وذلك كي تنقل إلى هؤلاء الغربيين صورةً آمنة، وعفوية، وحقيقية، مغايرةً لتلك التي تشبّثت بخيالهم عن العرب والمسلمين منذ مئات السنين.

إنّ هذا الكتاب كُتب في الأصل للقارئ الغربي لإطلاعه على ملامح إنسانية مضيئة من حياتنا لم يُتخ له أن يعرفها بفعل الجهل أو التجهيل. أمّا القارئ العربي فعلى بينة من أكثر ما سردته الكاتبة من تلك الملامح. ومع ذلك، فإن ثمة فائدة لنشر الكتاب بالعربية لأنه يُصوّر، فيما يُصوّر، ما يعانیه مواطنونا ومواطناتنا المقيمون في ديار الغرب، وما يصرّع في داخلهم من تناحر بين القيم التي أنشئوا عليها وبين قيم المجتمعات الغربية التي وجدوا أنفسهم مزروعين عليها.

وحسب الكاتبة أنها نبّهت في هذا الكتاب إلى خطر ذوبان المسلم والعربي في المجتمعات الجديدة، وأنها حدّرت من الانسلاخ عن الجذور، ومن التنكر للتراث.

وعلى هذا لم تتوخّ الدكتورة قباني أبداً أن يكون كتابها كتاباً في الفقه، أو التشريع، أو الأحكام الإسلامية، وإنما جعلته نابعاً من إيمان صافٍ بالمبادئ التي أنشئت عليها والتي أشارت إليها في معرض تناولها لتقوّلات الغرب واقتراءاته.

«رسالة إلى الغرب» هي إذن رسالة شجاعة، أصيلة النبرات، عفوية السرد، اهتمّ بها الغرب وأهل الغرب، ونعتقد أنّه من المفيد، بل من المهم، أن يعلم بها أيضاً أهل الكاتبة من القراء العرب والمسلمين في كل مكان.

مقدمة

هذا كتابٌ أنشأته امرأة مسلمة كانت كمن استخفت قبل أن تخرجها إلى العلن قضية سلمان رشدي.

فعندما لدغتنِي الكراهية العنصرية التي أطلقتها هذه القضية في الغرب، بدأتُ أمعن النظر في أمر كوني مسلمة تعيش فيه. كنت في حاجة إلى أن أعيد تفحص ولاءاتي من جديد، ورحت أفكر: تُرى من أي نمطٍ من المسلمين أنا؟ وإلى أيّ مدى قد تغرّبت؟ وبدا لي أنني انحشرت بين خصومتين عاتيتين: حكمٌ بالموت، غير مستساغ، أصدره آية الله الخميني على كاتب سخر من الرسول محمد ﷺ وإدانة فظة وجهها الغرب إلى حضارة وصفها بأنها ناشزة وهمجية. ووجدتني بين هذين الموقفين أتساءل: هل سيظلُّ بمقدوري أن أمضي في العيش في هذا الغرب دون أن ارتكب خيانة بحق جذوري الإسلامية؛ فأنا على الإسلام نشأت، ولقد حاولت أن أصوّر تلك النشأة في هذه الذكريات الشخصية التي عساها أن توضح مشاعر المسلم وأحاسيسه بطريقة أكثر شمولية.

وإذا كنت قد جرؤت على الكتابة عن نفسي فأنا أدرك حقاً كل المزايا التي قدّر لي أن أنعم بها في منطقة أكثر أهلها ذوو عسر وفاقة. ولكنني أعتقد أن ما يربطني بالنساء اللواتي هنّ أقل مني حظاً، سواء كنّ في المغرب أو في باكستان أو في برادفورد^(*)، إنما يتجاوز أي اختلاف طبقي بيننا كما أنه أكبر ممّا يفترقنا. وقد توحى النظرة الأولى أنني لست

(*) مدينة في بريطانيا تقطنها جالية إسلامية كبيرة (المترجم).

تلك المرأة المسلمة التي أَلِفَ الناس صورتها؛ غير أن أحاسيسي، وردود فعلي، وعاداتي اليومية، ونوازع أعماقي، إنما هي موسومة جميعاً بأثر لا يَمُحِي من تلك التربية التي أنشئت عليها. وبدلاً من أن أتنكر لهذه التربية، وهو ما كان محتملاً بحكم تعرّضي المبكر للغرب، فلقد وجدت من الأسباب ما يجعلني مدينة لها بكل ما ظلّت تشدُّ به أزرِي.

ولا شك أن الكثير من المناديات بالتحرّر، في الشرق أو في الغرب، قد أدركن، أنه على ما في التحرّر من أهميّة، فإن ثَمّة أشياء موعلة جذورها في داخلهن وأنها تبقى عندهن ذات شأن كبير حتى لو كانت لا تتماشى مع التحرّر بمعناه المبسّط. فالتناقضات هي جزء لا يتجزأ من حياة كلِّ منّا ولا سيما أولئك الذين يعايشون حضارتين في آن.

إنني أحمل لواء حضارتي دون أن ينتابني أي خجل بسببها، ولكنني لست، بحالٍ من الأحوال، بصدد الدفاع عن كثير من العُشْف المرتكب باسم الإسلام، فأنا أعترف بأن ثَمّة شوائب وهنات تعتري ممارسات المسلمين، إلا أنني حاولت في هذا الكتاب أن أصوّر ما هو عندي إرثٌ عظيم الإيجابيات.

إرث الافتراء

كان من شأن قضية سلمان رشدي أنها دلّت على اتساع الهوة الساحقة التي تفصل بين العالم الذي أنتمي إليه وبين الغرب، وهي هوة قد لا تُردم أبداً. وليس لأحد أن يظنّ أن الإسلام والغرب كانا يتعايشان من قبل في تحابٍ وودّة إلى أن جاء سلمان رشدي وأفسد ما بينهما. فالعكس هو الصحيح، إذ إن التوتر بين الطرفين لم ينقطع منذ القرن السابع، أي منذ أن برز الإسلام وأصبح قوّة سياسية وعقائدية قادرة على منازعة المسيحية. ولكن هل ثمة ما يبرّر لي أن أعود القهقري لأنقّب عمّا حدث في القرن السابع؟ وهل لهذا الماضي البعيد صلة بالحاضر الراهن؟

تسود في الغرب، ولاسيما خلال عقود ما بعد الحرب العالمية الثانية، نزعة ترمي إلى عدم اعتبار الماضي أمراً له تأثيره المباشر في الكيفية التي نفكر أو نحسّ بها اليوم. وبالرغم من تسلّط هاجس الماضي الامبريالي على العقل الغربي، فإنه يجري تلقين التاريخ لأفراد النشء الجديد على أنه شيء منفصل عن ذواتهم كما لو أنهم ليسوا سوى نتاج زمان ومكان قائمين بذاتهما.

فالراهن الحاضر هو وحده محل الاعتبار. ومن هنا يرى الكثيرون من الأميركيين والأوروبيين الغربيين أن الحاضر يبهز ويستحوذ على التفكير حتى إنه يغني عن أي حاجة سيكولوجية للارتباط بالماضي.

أمّا النفر من الأوروبيين الذين يرون أن حاضرمهم ذو صلة وثيقة بماضيهم فهم أصحاب المظالم أو أولئك المعرّضة هويتهم للتهديد مثل الإيرلنديين، وأهل الباسك، والكورسيكيين، والصرب. وأذكر أنني عندما كنت أزور يوغوسلافيا، وبينما كان دليلي الصربي يجول بي في المنطقة التي وقعت فيها معركة (كوسوفو)، أذكر أنني بهتُّ حين رأيته يرتجف من الانفعال لما بدأ يروي قصّة هزيمة شعبه - بل عالمه المسيحي نفسه - على يد الأتراك في عيد القديس (فيتوس) عام 1389. فمنذ ذلك التاريخ ما فتئت العواطف تتأجج في بلاد الصرب كلما حلّ عيد هذا القديس. ولعلّه لم يكن من قبيل المصادفة أن المناضل الصربي (غافريلو برينسيب) قد اختار في عام 1914 ذلك اليوم بالذات ليغتال فيه الأرشيدوق (فرانز فيرديناند) في مدينة (ساراييفو). وبعد مرور ستمائة عام على تلك المعركة مع الأتراك توجّه في عيد فيتوس عام 1989 مليون صربي إلى (كوسوفو) ليرفعوا لواء الرسالة المسيحية في وجه عدوهم القادم من الشرق الذي يتمثّل لهم اليوم، مع الأسف، بالجالية الألبانية المسلمة، المنكودة الحظ التي تعيش في وسطهم. وهكذا نجد أن بقايا كثيرة من الصدام بين العالم المسيحي والإسلام لا تزال معشّنة في تلك البقعة الأوروبية.

ويتفهّم المسلمون أن يكون للتاريخ يد في تقرير مشاعر الزمن الحاضر لأنهم هم أنفسهم يؤمنون بذلك. فالمسلمون، على عكس الأوروبيين، يتملّكهم في أغلب الأحوال فقر وخشية لا يتيحان لهم ترف التفرّد بالمشاعر، فردود أفعالهم حيال الأحداث إنما تكيّفها الذكريات الجماعية؛ فلقد ناء الشرقيون بأعباء التاريخ لأنه كان لهم دائماً تاريخ مظالم موجعة.

إن كل طفل أميركي يُلقَّن أنه «في عام 1492 انطلق كولومبوس في رحلته عبر المحيط الأزرق»، إلا أن معظم الأميركيين لا يرون في ذلك التاريخ الفاصل الذي شهد بروز الغرب حسبما نعرفه الآن، أكثر من رمز عاطفي خالٍ من أي مضمون سياسي، مثله في ذلك مثل عيد الشكر الأميركي الذي يحتفلون به بتناول الديك الرومي وفتيرة اليقطين ليسترجعوا ذكرى صمود روادهم يوم جابهوا أول شتاء لهم على أرض القارة الجديدة المعطاء. والاختلاف كبير بين تلك الذكرى وبين أصدقاء ذكرى (ماسادا)^(*) لدى التلامذة الإسرائيليين الذين يُحقنون بها على أنها مثال للبقاء السيكولوجي الراهن.

والأطفال العرب أيضاً يُلقَّنون بأن تاريخهم هو جزء لا يتجزأ من حاضرهم، فهم يتعلَّمون في المدرسة قصة أبي عبد الله الصغير آخر حكام الأندلس المسلمين ويشاركونه دموعه يوم سلم مفاتيح غرناطة إلى ملوك الكاثوليك عام 1492 فقرَّعته أمه قائلة:

«إبكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً

لم تحافظ عليه مثل الرجال»

ولا تزال عبارة التأنيب هذه تسكن في جوارح العرب لأنهم يدركون أن التاريخ قد انزلق من بين أيديهم في تلك اللحظة بالذات ووضعهم على طريق الانحدار، بينما وضع أوروبا المسيحية على طريق الصعود الأمبريالي. وهكذا يعدو ضياع الأندلس كونه مجرد نبذة في كتاب تاريخي عربي مُغبرٍ ليصبح بمثابة حدث معاصر كان نذيراً لسلسلة من الكوارث العربية العديدة الأخرى وبخاصة كارثة ضياع فلسطين.

(*) قلعة قرب البحر الميت يدعي اليهود أنها كانت آخر معقل المقاومة اليهودية خلال الحكم الروماني في القرن الأول الميلادي (المترجم).

ولو أقرّ الغرييون بذلك لكانوا قد اعترفوا حتماً بأن مواقفهم حيال المسلمين إنما تشوبها رواسب مرويات شعبية غائمة تتحدّث عن نزاع طويل لا ينتهي ويمتدّ عبر قرون غابرة. ولو لم يكن الأمر كذلك فكيف للمرء أن يفسّر تلك الهيجانات العجيبة الطافحة بالعداء ضد المسلمين والمؤذية لمشاعرهم، ومنها على سبيل المثال هيجان الآنسة فاي ويلدون؟ ففي كتابها «البقرات المقدّسة» الذي كتبه في نطاق الجدل حول سلمان رشدي نراها تقول:

«لا يشكّل القرآن غذاء للفكر. وهو ليس بقصيدة يمكن أن يُشاد عليها مجتمع آمن ومستقر، بل هو يمدّ الفكر البوليسي بالسلاح والقوّة، وسرعان ما يتحرّك هذا الفكر البوليسي وينشر الرعب. إن القرآن هو نصّ محدود عندما يتعلّق الأمر بمعرفة الله كما أفهمه أنا». ثم تخلص الكاتبة إلى القول بكثير من الاستعلاء الثقافي: «إنه يمكنك أن تبني مجتمعاً لائقاً على أساس الكتاب المقدّس.. أمّا على أساس القرآن فلا»⁽¹⁾.

ولكن هل تستند هذه الأحكام المتسرّعة الطائشة إلى معرفة مباشرة بالمجتمع الإسلامي؟ وهل درست الآنسة ويلدون التاريخ العربي أو الإسلامي؟ وهل هي على دراية بالسياق الذي جاءت فيه التعاليم القرآنية؟

ثم لا تلبث الكاتبة المذكورة أن تعلق على طلب المسلمين البريطانيين بأن يكون لهم مدارسهم فتقول: «إنهم بالطبع ليسوا على حق، ويتعيّن ألاّ نسمح لدين بدائي لا يعرف الحشية بأن يُلقن للأطفال فيرهبوا به».

(1) فاي ويلدون، «البقرات المقدّسة»، منشورات (تشاتو)، لندن، 1989.

ولا شك أن الآنسة ويلدون ستكون على سجيتها وسط المحتشدين في (كوسوفو) لأن الصراخ في نبرتها يكشف عن خوف مسيحي قديم من المسلمين، فمع أن الانتصارات الغربية خلال العقود الماضية أفلحت في التغلب على جزء كبير من هذا الخوف، إلا أن بقايا كثيرة منه لا تزال تكمن في اللاوعي الثقافي.

وهناك مثال آخر: إنه (كونور كروز أوبريان) الذي عمل أستاذاً للدراسات الإنسانية في جامعة نيويورك، ورئيساً لتحرير جريدة «الأوبزفر» اللندنية، وكان عضواً في مجلس الشيوخ الإيرلندي. فهو لم يكذب تسنح له فرصة عابرة لشتم المسلمين حتى انزاح عن وجهه قناعه الليبرالي عندما كتب في مقالة حديثة له يقول:

«إن المجتمع الإسلامي يبدو مثيراً للاشمئزاز لأنه فعلاً يثير الاشمئزاز.. وإن أي غربي يدعي الإعجاب بالمجتمع الإسلامي، وهو لا يزال مرتبطاً بالقيم الغربية، فهو إما منافق وإما جاهل وإما كلاهما معاً. إن لبّ المسألة هو الأسرة المسلمة، وإنها لمؤسسة مقبولة».

ثم ينتهي إلى القول موسعاً نطاق هجومه:

«إن المجتمع الإسلامي والعربي هو مجتمع مريض، ولقد ظلّ مريضاً على امتداد زمن طويل. وفي القرن الماضي كتب المفكر العربي جمال الدين الأفغاني^(٥) يقول: (كل مسلم مريض، ودواؤه الوحيد هو القرآن) ولكن مع الأسف ما ازداد المسلم تناولاً من هذا الدواء إلاّ ازداد مرضاً»^(٢).

(٥) الأفغاني مفكر إسلامي وليس عربياً. (المترجم)

(٢) كورنور كروز أوبريان، جريدة (التايمز)، 11/5/1989.

إن سخرية (أوبريان) المفرطة تكشف، ربما دونما وعي، عن أعراض كانت تنتاب عالماً مسيحياً محاصراً إبان القرون الوسطى.

إن إرث التحامل والجهل هو إرث قديم العهد⁽³⁾. ففي القرن الثامن كان أحد آباء الكنيسة الجدليين هو البادئ لتقليد طويل من الاستهزاء بمحمد ﷺ وبالقرآن. فحين فقد أعصابه وهو يرى انتشار الإسلام السريع، ووجد في زحفه الناجح ما يتهدده كمسيحي، راح يسلط عليه سهام النقد اللاذع التي كان يستعملها لمحاربة هراطقة كنيسته فادعى أن محمداً ﷺ «هو نفسه مهرطق، بل إنه أشدّ الهراطقة خطراً لأنه عمد إلى وضع محاكاة للمسيحية بعد أن انتحل أفكار راهب نصراني».

أمّا اسبانيا المسيحية التي اجتاحتها الإسلام فهي التي وضعت مقولة إن محمداً ﷺ «صاحب خطط دنيوية، وأنه نقيض المسيح الطاهر، الفادي، اللادنيوي». وهكذا صيغت الفكرة القائلة بأن محمداً ﷺ «هو المعادي للمسيح» التي تنادى حول رايتها الصليبيون. وكان من شأن انتصار الحملة الصليبية الأولى أن زوّد هذا التحامل بالصدقية، وشجّع على التماذي فيه، إذ لم يمضِ وقت طويل حتى جهر أحد البابوات، وهو (ابنوسنت الثالث) عام 1213 بوصف محمّد ﷺ بأنه «وحش القيامة»، وهو قول يمثّل واحدة من العبارات النابية التي استعملها الجدل اللاهوتي في القرون الوسطى.

إن النزعة العدائية ضد الإسلام لم تكن مجرد هيستيريا بل هي ذات جذور نمت من تصادم المصالح. فبعدما دمّرت جيوش المسلمين

(3) إنني مدينة كثيراً لكتاب نورمان دانيل «الإسلام والغرب: صياغة صورة»، منشورات أدنبره، 1960، وكتاب ر. و. ساذرن «نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى»، منشورات كامبردج، رسالة ماجستير، 1980.

امبراطورية بيزنطة المسيحية، وراحت تتوغّل في أرجاء أوروبا، أضحت الامبراطورية الإسلامية الآخذة بالانتساع تشكل تهديداً عسكرياً حقيقياً لممالك الغرب الصغيرة ولإقطاعيات باروناته.

كما أن الإسلام، وهو دين نضالي، شكّل تحدياً عقائدياً للمسيحية إذ رؤي فيه «الكثير من الإغراء الماكر» فهو يسلم ببعض أركان العقيدة المسيحية بينما يرفض بعضها الآخر. فالمسلمون يؤمنون بوحداية الله، ويجلّون المسيح نبياً، ويعترفون بأنه وُلد من أمّ عذراء، ويقدّسون الإنجيل، ويحترمون اليهود والنصارى لأنهم «أهل الكتاب». ولكنهم لا يقرون مفاهيم الثالوث الأقدس ولا ألوهية المسيح لأنها تنتهك وحدانية الله، كما لا يستطيع المسلمون أن يقبلوا بأنه تعالى يمكن أن يسمح بأن يُصلب مسيحه. أمّا العقيدة المسيحية التي تقول بأن الإنسان يولد خاطئاً ولا خلاص له إلاّ بدم المسيح فهي في نظرهم تقارب المعتقدات الوثنية.

ولما كان المسلمون لا يرون أن الإنسان يحتاج إلى وسيط بينه وبين الله فهم يرفضون نظام الطبقات الكهنوتي، وممارسة الاعتراف، ومؤسسات الرهبنة العزيزة على قلب الكنيسة المسيحية، لإيمانهم بأن الطريقة التي يعبد بها المسلم ربّه هي شأن شخصي بحت ما دام لا يُخلّ بحرمة المجتمع. أمّا المسيحية فعلى النقيض من ذلك إذ إنها اقتحمت خصوصية ما في نفس الإنسان، ولم تبد اهتماماً بتفاصيل سلوكه الحياتي في المجتمع، مؤثرة أن تترك ما لقيصر لقيصر. ومن هنا فقد ارتبك المسيحيون أمام الشريعة الإسلامية التي تجمع الأحكام المستمدة من القرآن والحديث والناظمة للمجتمع بصورة عملية. ولأنها كذلك اعتبرها المسيحيون دليلاً على أن الإسلام «أقلّ روحانية وأكثر دنيوية من دينهم، ولذلك فهو في نظرهم أدنى مرتبة».

ثم حلت محل هذا النهج الفجّ عداوة تقوم على المحاجّة العقلانية، وذلك حين جابهت المفكرين المسيحيين أمثال (توما الأكويني) و(روجيه بيكون) أفكار (ابن سينا) وغيره من جمهور الفلاسفة المسلمين التي راحت تخترق العالم الغربي بدءاً من القرن الثالث عشر. فقد حثّ (بيكون) المسيحيين على دراسة الإسلام (الذي كان يسمّيه الكفر)، والتمعّن فيه، كي يستطيعوا دحضه، مستخدماً في حججه منهج المنطق الذي تعلّمه من (ابن رشد) وغيره من فلاسفة الإسلام.

ورغم تزايد الحذقة في تلك التهجمات فإن الإرث الغربي الذي تركته هذه العصور ظلّ يشوبه التشويه وتسوده الصورة الشيطانية التي رُسمت للإسلام ولنبِيِّه. وهكذا لم ينفك الكتّاب الغربيون واحداً بعد آخر، وجيلاً بعد جيل، يكرّرون الأساطير القديمة ذاتها المنسوجة حول رسول المسلمين ﷺ حتى أصبح من المستحيل على الفكر الغربي أن يستوعب كنه الإسلام ويتناوله إلا من خلال هذه الموروثات المليئة بالعداوة والريبة، وأضحى الإسلام المشوّه هو محور رؤية الكنيسة المسيحية، بل راح هذا التشويه ينشر سموه حتى في الفكر غير الديني، واتسع نطاق التحامل ليشمل ذلك النفر من الباحثين، واللغويين، والرحّالين الذين أنكبوا خلال القرنين أو الثلاثة الماضية على دراسة المجتمع الإسلامي، والذين عُرفوا باسم المستشرقين. فقد وقع هؤلاء أيضاً تحت وطأة ذلك الموروث المشوّه⁽⁴⁾.

ولكن بينما كان الأوائل ممن استصغروا الإسلام ينطقون عن جهل، استخدم المستشرقون معرفتهم بالقرآن وبالتاريخ الإسلامي ليدعموا الأساطير المهينة القديمة.

(4) مكسيم رودنسون، «أوروبا وصوفية الإسلام»، منشورات (توريس)، لندن، 1988.

ومن اللافت للنظر أن ثمة ثلاث قصص بالذات كانت تتكرر باستمرار في الكتابات الغريبة. وقد أشرنا إلى أولها آنفاً وهي التي تصف محمداً ﷺ بأنه «أُمِّي طموح نقل دينه عن راهب آري ثم صنع منه شيئاً يشبه الدين بعد أن استقى حسناته من النصرانية وسيئاته من تخيلاتهِ هو». أمّا القصة الثانية فهي قصة الصحابي (زيد بن حارثة) من أوائل من اعتنقوا الإسلام. كان وهو صبي رقيقاً عند زوج النبي ﷺ خديجة فاستوبه منها وأعتقه، وتبناه ثم صاهره حين زوجه ابنة عمته زينب سليمة أشرف أسر قريش، وذلك ليقول إن الناس في نظر الإسلام سواسية. ولكن زينب وأسرته لم تكونا قد تحررتا تماماً من روح الجاهلية فأحسنا أن هذا الزواج ينال من مفهومهما المتعالي للمصاهرة والنسب، فراحت الزوجة التي أنفت أن يتزوجها غلام رقيق تجافي زوجها، وترفع عنه، وتغلظ له القول حتى اضطر أن يطلقها. وعندئذ أحس محمداً أنه المسؤول عن انهيار تلك الزيجة لأنه هو الذي شدّد على زينب لتتزوج زيدا، فبنى بها لكي يقول أيضاً إن المطلقات، مثل الرقيقات والمهجورات، لسن منبذات. أمّا الطريقة الاستشراقية التي صيغت بها تلك القصة فهي «أن محمداً أشتهى كتنه فعمد إلى إفساد زواجها كي تصبح له»، مع أنه كان أيسر شيء عليه أن يتزوج زينب ابتداءً ولا يروضها على قبول زيد وهي تآباه.

وأما القصة الثالثة فهي أسطورة ما يُدعى بـ (الآيات الشيطانية) التي نالت رواجاً في المدّة الأخيرة. فعندما باشر محمداً ﷺ دعوته في مكة حوالي 610 كان أول ما قام به هو شجب عبادة الأوثان، والمناداة بوحدانية الله، الأمر الذي أقلق أهل مكة لأنهم كانوا ينعمون بدخل وفير من الحجيج الذي كان يتدفق على مكة لتقديم فروض الولاء

لأصنام الآلهة والإلهات عند الكعبة التي كانت، كما هي اليوم، مركزاً للعبادة. ولكن أشيع أنه «لم تمض بضعة سنوات حتى أعاد محمد ﷺ الاعتبار لثلاث من الإلهات بدعوى أنها مقبولة الشفاعة».

والذين تقوّلوا ذلك على محمد ﷺ كانوا حفنة من المؤلفين⁽⁵⁾، بيد أنهم لم يكونوا هم أنفسهم متفقين على ماهية الكلمات التي نُسبت إليه. ومن المحتمل أن يكون أول من روج تلك الأكذوبة هم (الزرادشتيون) الذين تغلغوا في الإسلام بهدف تدميره، وتخريب عقيدة التوحيد فيه بالذات. ولكن غالبية أصحاب المكانة من الباحثين ينكرون أن النبي ﷺ قد أعاد البتة لتلك الإلهات قدسيّتها، وليس ثمة أي دليل يقطع بأن ما سُمّي بـ «الآيات الشيطانية» قد ورد في النصّ القرآني. إلا أن ذلك لم يحلّ دون تشبّث المستشرقين بهذه الأسطورة بهدف إعطاء الدليل على أن محمداً ﷺ كان «متعطّشاً للسلطة، وأنه، من أجل كسب دعم ذوي المصالح من أهل مكّة، كان على أتمّ الاستعداد ليتخلّى عن عقيدة التوحيد التي هي أهمّ أركان دعوته». وهذا الكلام هو الذي تبنّاه سلمان رشدي في روايته المثيرة للجدل التي جعل فيها محمداً ﷺ «رجل أعمال يتصيّد الفرص السانحة».

وقد استُخدمت هذه القصص، وكثيرٌ من مثيلاتها، على مرّ العصور لتبرّر نعت محمّد بأنه «منتحل أفكار»، وهي صورة لا تزال قابعة بيننا، وترمي إلى الإجهاز على شخصية محمّد ﷺ بأمل النيل من الإسلام والقضاء عليه قضاء تاماً. وجاء هذا كله من تماثل مظنون مع المسيحية التي تتمحور عقيدتها حول المسيح الطاهر وتعتمد أساساً على أنه الفادي

(5) محمد حسين هيكل، «حياة محمّد»، منشورات (دار أميركا الشمالية)، واشنطن،

والمخلص، وأنه لا سبيل إلى الآب إلا عن طريق الابن. وعلى هذا تصبح طهارة المسيح هي الركن الأساسي للبنیان المسيحي فإذا ما نيل من عفة المسيح، كأن يُقال مثلاً بأنه بشرٌ له شهواته، فإن البنیان يتهاوى برمته. وهذا ما يفسّر موجة الغضب التي أثارها فيلم «غواية المسيح الأخيرة» للمخرج (سكورسيس). ومن هذا المنطلق دخل في الظن أن الإسلام يمكن تدميره بمجرد تدمير سمعة نبيّه؛ ويوحى بذلك إصرار بعض الباحثين الغربيين على نسبة المسلمين إلى محمد ﷺ وتسميتهم بـ (المحمّدين).

ومما لا شك فيه أن هذا التاريخ الطويل من التشويه والاستهزاء الذي غداه آباء الكنيسة، والفرسان الصليبيون، ورجال اللاهوت، والرحالون، والمستشرقون، والروائيون المعاصرون، يشكل بحد ذاته عقبة هائلة أمام أي تفهّم قائم على التسامح.

وفي بريطانيا أخرج كتاب سلمان رشدي إلى العلن إحباطات الأقلية المسلمة التي كانت ترى أن دعاوى التعددية الثقافية التي يتبجح بها المجتمع البريطاني، إنما هي دعاوى زائفة وكاذبة، فهي تشعر بأن لا أحد يعير حقوقها الاهتمام الكافي⁽⁶⁾. وحيال مجتمع الأكثرية الذي لا يزال بالأساس مسيحياً بقوانينه وبمؤسساته، يجد المسلمون أنفسهم دونما حول ولا قوّة ولا حماية. وكان إحراقهم لكتب سلمان رشدي في (برادفورد) بمثابة محاولة يائسة لاستقطاب انتباه وسائل الإعلام، بعد أن تبينوا أن احتجاجات سابقة لهم أقلّ إثارة لم يلتفت إليها أحد. فقد بقي المسلمون البريطانيون قبل (برادفورد) خارج نطاق الاهتمام، ولكن ما إن

(6) آلان بايك، مقالة بعنوان «قضية رشدي تكشف الغطاء عن توتر عصري طويل الأمد»،

جريدة (فاينانشال تايمز)، 24/6/1989.

قاموا بمظاهرات غاضبة بهدف حثّ الحكومة على اتخاذ اجراءٍ ما ضد الكتاب حتى عادت صورتهم التقليدية المألوفة في الذهن الغربي تطفو من جديد، وأصبح من اليسير نعتهم بأنهم متعصّبون بدائيون لا يملكون أيّ حسّ حضاري يجعلهم يقدّرون قيمة الرأي الحر.

إلّا أن احتجاجاتهم هذه المرّة غيّرت الحال، وأصبح لاسم (برادفورد) رنين مختلف، تماماً كالرنين المختلف الذي اكتسبته (بريكستون)^(٥) في الماضي. فما إن انفجرت أعمال الشغب في بلدة (كيغلي)، المفعمّة بذكريات (شارلوت برونتي) حتى اقتلعت تلك البلدة من ذكريات الأدب الإنكليزي لتُتخّم في معمعة الحاضر البريطاني الراهن بكل ما فيه من تعدّيات عرقية وتعقيدات.

وهكذا رفع المسلمون في بريطانيا صوتهم، ولوّحوا بقبضتهم. وإذا لم يكن أحد قد استساغ ما قالوه، ولا الأسلوب المتعثر والمفكك الذي استعملوه، إلّا أن الجميع أصغوا إليهم على الأقل وراحوا يتساءلون: تُرى مَنْ يكون هؤلاء الغرباء؟ ولكن لم يتبيّن على الفور أن ما يريده المسلمون كان قبل كل شيء احترام دينهم، والاعتراف به، أي الاعتراف بهويتهم، بعد قرون طويلة من التعسف. كانوا لا يريدون أن يذلّهم أحد بعد الآن، ويرفضون ما درج عليه الغرب من استهزاء بهم، وعزموا على التخلص من هذا الاستهزاء إلى الأبد وعلى رده نحو من استصغروهم. وعندما هدّد المسلمون في بداية 1989 بنسف قبر «دانتى» في (رافينا) وطالبوا بتحريم (الكوميديا الإلهية)، إنما كانوا يحتجّون على نصّ من بواكير الأدب الأوروبي نقل اقتراءات كنيسة العصور الوسطى ضد

(٥) منطقة في لندن يقطنها السود، وقد قام هؤلاء في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين بمظاهرات عنيفة احتجاجاً على التفرقة العنصرية التي كانوا ضحاياها (المترجم).

محمد ﷺ برمتها. ولا يمكن نعت هذا الاحتجاج بأنه مجرد تعصب ديني أرعن، ذلك لأن الهوية الثقافية والسياسية عند المسلمين لا تنفصم أبداً عن الدين، فَمَنْ أساء لهذا فقد أساء لتلك. والمسلمون هم أشبه ما يكونون باليهود فيما يخص هذا التلاحم الوثيق بين الدين والهوية.

إن ما يغضب المسلمين اليوم هو أن تمسك الغرب بالافتراء عليهم، وبتشويه صورتهم، قد أمعن في البقاء الطويل حتى بعد أن تلاشت الإمبراطوريات الغربية، وتحزرت الشعوب التي استعمرتها؛ فالثقافة الغربية لا تزال تتخللها تلميحات معادية للإسلام، كما أن التغطية الإعلامية في هذه الأيام لا تنفك تعكس في أغلب الأحيان أصداء من تهجمات القرون الوسطى على المسلمين. ولقد رأينا، على سبيل المثال، كيف أن جريدة (الشعب) البريطانية خصّصت صفحة بكاملها لصورة جنازة آية الله الخميني وللجموع الحزينة الغفيرة التي أحاطت بجثمانه واختارت لها عنواناً يقول بالحروف العريضة: «ناتفو جثمان الإمام المعتوهون»⁽⁷⁾. إنها كلمات تؤكّد أن الازدراء الثقافي الغربي لا يزال مقيماً بيننا.

ولدى المسلمين بعض الحق حين يقولون إن أبحاث القرن العشرين قد أخفقت في دراسة الإسلام بالطريقة المتأنية والموضوعية التي يستحقّها، بدلاً من ذلك كان هناك تركيز دائم على مسألة العنف الإسلامي والإرهاب والتعصب. ومثلما كان الحديث الغربي عن الشيوعية يتّسم، إلى عهد قريب، بالتحامل والخوف، أصبح الحديث الآن يدور عمّا يُسمّى بالتهديد الإسلامي لمصالح الغرب. ولا شك أن كون كثير من الأقطار الإسلامية مسرحاً لخلافات سياسية كبيرة، إمّا بشأن النفط أو المصالح الاستراتيجية، وإمّا حول نزاعات طال أمدها مثل الصراع العربي

(7) مجلة «الشعب»، عدد 11/6/1989.

- الإسرائيلي، أو حرب الخليج، نقول لا شك أن ذلك كله يساهم في إضفاء هذا اللون على الحديث حين يتناول تلك النزاعات. ولكن المسلمين يتساءلون: هل يمكن للغرب أن يتهرَّب هو نفسه من تهمة العنصرية؟ فلو كان الاسكندنافيون أو الكنديون مسلمين فهل كانت صورتهم تبدو ممجوجة ومذمومة إلى هذا الحدِّ؟ لقد أصبح العالم يألف ما يمارسه اليهود، حين يُساء إليهم، من أفعال الغضب، والدفاع عن النفس، وذلك في ضوء تاريخ الاضطهاد الذي تعرَّضوا له. واليوم يصبح الغضب الإسلامي هو الآخر ذا صوت مسموع ويغدو بدوره قوة يُحسب لها الحساب. وهذا هو أهمُّ ما أبرزته قضية سلمان رشدي.

لقد شكَّل الإسلام منذ البداية معضلة للغرب لم يعرف ماذا يفعل حيالها، فقد أثبت ذلك المنافس أنه ذو قدرة فائقة على الصمود وأنه ليس لُقمةً يسهل ابتلاعها. وعلى مرَّ القرون، أخفقت المحاولات الرامية إلى تحويل المسلمين عن دينهم، كما أن محاولات قهرهم وإخضاعهم لم تُعمر طويلاً. ورغم أن الغرب، في أيامنا هذه، أصاب نجاحاً أكبر في تخریب المجتمع الإسلامي، وفي إذكاء حروبه عن طريق مدِّه بأسلحة الدمار، إلا أن ذلك لم يؤدِّ إلى تهاوي الأقطار الإسلامية وسقوطها جميعاً، بل تبين أن التحدي للغرب أصبح أقوى وأشدَّ.

أمَّا بالنسبة إلى المسلمين فالمعضلة تبدو على نحو مختلف. والسؤال هو: كيف لهم أن يصمدوا ثقافياً وسياسياً في عالم تصوغه كلياً الأفكار الغربية، وتُسَيِّرُه تكنولوجيا الغرب، وتهمين عليه قوته؟ إنه مأزق هائل يزيد من صعوبة التعامل معه عقلاً نياً شعور المسلمين المفرط بالضيء، وهو شعور لا يفارقهم بسبب التجربة التي مرَّوا بها عندما كانوا يعانون من الاستعمار، والخذاع، والازدراء، بالإضافة إلى أنهم يرون أن معايير هذه

الأيام تكاد تجعل حياة المسلمين أدنى قيمة من حياة المسيحيين أو اليهود. وأعتقد أن اللاسامية، المستوطنة في الثقافة الغربية، قد أكرهت على الاستخفاء، ولهذا لم يعد من اليسير التهجّم علناً على اليهود، أو التعريض بهم، أو تشويه صورتهم، غير أن المحرّمات لم تشمل المسلمين أيضاً، بل يمكنني القول، بكل صراحة، إن التحقير الذي كان يصيب اليهود قد تحوّل برمته، في الثقافة الغربية الراهنة، ليصبح من نصيب المسلمين. وهناك كثيرون يشاركونني تخوّفي هذا حتى إن أحدهم كتب يقول: «في المرّة القادمة سيكون في أوروبا غرف للغاز، ولا أحد يشكّ في هوية الذين سيساقون إليها»⁽⁸⁾.

إن أمام المسلم حين يأتي، مثلي، ليعيش في الغرب خيارين، فإمّا الذوبان فيه، وإمّا مجابته. لقد تساءلت أول الأمر: هل عليّ أن أذيب هويتي في محيطي الجديد وأن أصطنع ألوانه وقيمه، مع أنه قد يرفضني في نهاية المطاف؟ أم عليّ أن أقاوم تأثيرات هذا الغرب، وأن أوصل دونه أبوي، بل وأن أحاربه إذا لزم الأمر، فأخاطر عندئذ بأن أجدني معزولة داخل أسوار «غيتو» حقيقي؟

ولقد تصارعْتُ طويلاً مع هذه المشكلة، فكنت أذوب مرّة وأمارس المجابهة مرّة أخرى، ولكنني لم أستسغ أياً من الحاليتين. فالذوبان أشعرنني أنني أخون تراثي، وأمّا المجابهة فقد صيّرتني متعصّبة متطرّفة ينتابني الإعياء والمرارة. ثم إنني وجدت في الغرب أموراً كثيرة أعجبتني وتمنّيت لو أبتناها، في حين كانت ثمة أمور كثيرة في الإسلام حرصت على التمسك بها. وبدا لي أن العثور على مكان وسط أسكن إليه كان صعباً

(8) الدكتور شاير أخطار، جريدة «الغارديان»، عدد 27/2/1989.

للغاية، فأنا نتاج نهجين من التفكير والمشاعر، وحصيلة عالمين يستعصي عليهما الالتقاء على أرض مشتركة، فكل منهما هو نظام متكامل بذاته ومتداخل الأجزاء بحيث لا يمكن عزل أحدهما عن الآخر. وانتهى بي الأمر إلى أنني أحسست كما لو أن شخصيتين مختلفتين ولدتا في داخلي، ومع أنهما متلاصقتان تلاصقاً حميماً في ذاتي فإن الواحدة لا تقرّ بوجود الأخرى. ورحت أتساءل: هل يعاني من هذا الانقسام كل من هاجر إلى ثقافة أخرى غير ثقافته؟ أم أن الأمر وقف على المسلم في الغرب؟

وبعد عشر سنوات من التراجع أراني أجد أنه لا بدّ من تحقيق توازن فيما بين تجربتي: الإسلامية والغربية.
إن حاجتي للتوصل إلى مثل هذا التوفيق بين التجربتين كانت الدافع الأول لإنشاء هذا الكتاب.

تنشئة إسلامية

وُلِدْتُ بدمشق قبل واحد وثلاثين عاماً في شارع هادئ ظليل يحمل اسمَ ثوريٍّ عاصفٍ هو (أبو ذرّ الغفاري) أحد صحابة الرسول محمد، ومن أوائل الذين دخلوا في الإسلام. وعلى أثر وفاة النبي ﷺ انتقل إلى الشام، ولكن سرعان ما أغضبه تباذير بلاط الأمويين وإسرافهم، فزأر بعبارة الشهيرة: «وعجبتُ ممن لا يجد القوتَ في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه» التي جعلت الفقراء والجياع يلتفون حوله. فعمد الخليفة، كي يُسكت هذا المثير للفتن، إلى إخراجه من ديار الشام إلى المنفى حيث مات عام 652، ولكن روحه بقيت تظلّل مكان ولادتي ولعلّها هي التي جعلتني آخذ بعضاً من تمرّده.

لقد أنشئتُ على التربة الإسلامية التي هي مجموعة متشابكة من المعتقدات والقيمِ والتي أعود اليوم فقط لأكتشف بعضها في حنايا نفسي. وحين يقولون إن الإسلام هو دين شامل، فهذا يعني أنه ليس مجردَ نظرية دينية تحثّ على الإيمان بالله وبرسالته نبيه، بل هو أيضاً أسلوب حياة كامل. فالإسلام انسحب أثره على الطريقة التي أرى بها أبويّ والجيران، كما حدّد لنا ماذا نأكل وماذا نشرب، وكيف نغتسل ونتحدّث، وكيف ننظر إلى العالم - ولا سيما عالم الغرب غير المسلم. ومع أنني وُلِدْتُ في شقّة على الطراز الأوروبي الحديث، إلاّ أن المسكن ظلّ في عُرف أسرتي هو البيت الدمشقي التقليدي الذي

تتوسّطه فسحة سماوية، والذي نزع عنه أبواي قبل مولدي يبضع سنوات، ويقع عادة في الحيّ القديم من المدينة ويعيش فيه جنباً إلى جنب الأحوال والأعمام والحالات والعَمَّات وأولادهم، وفيه تتوالى الأسر وتتوسّع دائرتها جيلاً بعد جيل. كان هذا النمط من البيوت هو السكن التقليدي للعائلة الإسلامية من مختلف الطبقات، بواجهته الخارجية المتكشفة، وما يضمّه عالمه الداخلي الحميم من نوافير، وأشجار، وعرائش، وورود وأزهار. وفي واحد من هذه البيوت ترعرع كلٌّ من أبي وأمي.

كانت أُمِّي وهي طفلة تلعب في فسحة دار جدّها الواسعة الكائنة في حيّ قريب من «الشارع المستقيم» التاريخي الشهير في دمشق القديمة، وكانت قطة البيت تشاركها لعبها، وتنطّ معها وهي تقفز من دائرة إلى أخرى مرسومة بالطباشير على بلاط أرض الدار. وما إن يشرف النهار على نهايته، وتخفّ وطأة الحرّ، حتى تبدأ أزرار الياسمين البيضاء تتفتّح على أغصانها التي تغطّي الجدران العالية. وكان الماء يتفرّق من نافورة برونزية تتوسط الفسقية الرخامية، ثم لا تلبث القطة أن تجيء، وقد أعيها اللعب، لتستريح على حافتها اللامعة، وتلاحق بعينها السمكة الذهبية المناسبة في ماء الفسقية بسرعة ورشاقة.

في مثل هذه البيوت عاشت أسر كبيرة، وتزاوجت، وتصاهرت فيما بينها، وتكاثرت، وتشاجرت، وتآزرت، وجابهت المجتمع عصبية واحدة متعاضدة. غير أن ضغوط الزمان المتغيّر أكرهت هذه الأسر على التفرّق في عائلات صغيرة مستقلة لا تضمّ الواحدة منها سوى الجدّين والأبوين والأولاد ومن يلوذ بهم. وهكذا تحوّل أهل البيوت الواسعة القديمة التي كانت تغلي بالحوية والنشاط، إلى أسر منكمشة تلقّها العزلة والوحشة. وفي فورة شقّ طرقات جديدة في العاصمة لمواكبة توسّعها السريع

الذي بدأ في الأربعينيات من القرن العشرين، تمَّ جرف أكثر من نصف المدينة القديمة، وهدمت مئات من البيوت النبيلة الجميلة التي ظلَّت صامدة عشرات السنين. ويمكن أن يجد المرء اليوم مثيلاً لها في الأندلس حيث نقل طرازها الأمير العربي عبد الرحمن الداخل عندما غادر الشام في القرن الثامن ليؤسِّس سلالة أموية في إسبانيا. ولكن جوهر البيت الدمشقي لم يَمُح بسهولة، فعندما نزع الدمشقيون إلى شقق حديثة تمكَّنوا من أن يحملوا معهم في داخل أنفسهم معالم بيتهم المندثر فترى في تصرُّفاتهم وسلوكياتهم، جنباً إلى جنب، رسميات القاعة القديمة، وحميميَّة الدهاليز المنغلقة جميعاً.

والواقع أنه ليس من اليسير أن تتلاشى العادات القديمة. فأبي الذي عاش السنوات الخمس والعشرين الأولى من حياته في بيت دمشقي، كان كلما انتهى من الاغتسال في حَمَّامه الحار المشبع بالبخار، يغطي رأسه بطاقيَّة صوفيَّة لتقيه من برد باحة الدار المكشوفة وهو يخترقها نحو غرفة النوم في الطرف الآخر من البيت. ولكن، ومع مرور السنوات الطوال على سكناه في شقَّة حديثة ذات غرف وممرَّات مدفأة جيِّداً، فإنه ظلَّ متمسِّكاً بعاداته وبتاقيته تلك كلما اجتاز المسافة القصيرة الفاصلة بين الحَمَّام وغرفة النوم الملاصقة. ولم ينقطع عن فعل ذلك إلاَّ حين أشرت إليها ذات يوم ونبَّهته وأنا أضحك إلى أنه لم يعد له بها حاجة. إن في داخل المسلم الذي يتزيَّاً بملابس الغرب يكمن عالم آخر من العادات، والقيم، وأساليب التصرُّف، لا يستطيع المراقب الغربي أن يراها، إذ يسهل على الغرباء أن يستوعبوا المظهر الخارجي لهذا المسلم، ولا سيما حين يكون متماشياً مع الحياة الحديثة، وأمَّا الذي هو داخل ذاته فغالباً ما يبقى خافياً عليهم.

ولقد ظلّ المسلمون الذين انتقلوا إلى شقق حديثة يمارسون فيها شعائر دينهم وطقوسه من وضوء، وصلاة، وتسبُّر على النساء، وواظبوا على احترام تقاليد البيوت القديمة حين تأزف الأيام الهامة في حياتهم، كأيام الخطبة، والزواج، وولادة الأطفال وختانهم، والطلاق، والحداد، والصيام، والاحتفال بالأعياد الدينية، وبعودة الحجيج.

يُشار عادة إلى الإسلام على أنه الدين الوحيد الذي يضع النساء في مرتبة أدنى من مرتبة الرجال. والحقيقة هي أن الأديان التوحيدية الثلاثة، اليهودية والمسيحية والإسلام، تتساوى جميعاً في النزعة الأبوية وفي هيمنة الذكر على مؤسساتها. وعلى هذا ينبغي أن تُدان كلها أو لا أحد منها. ففي الكنيسة المسيحية يكفي أن نشير إلى الجدل المحتدم حول قبول النساء في سلك القساوسة، كما أن النواهي البابوية المتعلقة بتحديد النسل، والإجهاض، والطلاق، لا يمكن وصفها بأنها تمنح النساء الكاثوليكيات مقداراً كبيراً من حرية القرار والاختيار. وأمّا اليهودية فهي قريبة الشبه بالإسلام في نظرتها إلى النساء كمخلوقات أقلّ شأنًا، ولذلك يتعينّ عليهنّ التسبُّر على مفاتنهنّ، والرضوخ لذكور العائلة آباء، وأزواجاً، وأشقّاء.

وبالطبع فإن المناديات بالتحرّر يعارضن بعض الأحكام الإسلامية التي يرين فيها جوراً على النساء، كأحكام الطاعة والإرث التي هي محل مناقشات حامية داخل المجتمعات الإسلامية بل وفيما بين النساء لسلمات اللواتي انقسمت آراؤهن وتعدّدت حيالها مثلما تنقسم عادة آراء النساء الغربيات وتعدّدت حيال أمور شتى. والواقع أن الجور ليس إحدًا في المجتمعات الإسلامية لأن هناك اختلافات كثيرة في تفسير النصوص الدينية، كما أن الممارسات التي تكون مرفوضة في بلد مسلم

قد تكون مألوفة في بلد مسلم آخر، ويرجع ذلك إلى أسباب سياسية واجتماعية لا علاقة لها بالدين. وحقيقة الأمر أن قهر المرأة في المجتمع الإسلامي، شأنه في ذلك شأن المجتمع الغربي، إنما يتأتى دائماً من الفقر والجهل لا من الدين. فالمرأة المسلمة الفقيرة تعاني أكثر بكثير من المرأة المسلمة الغنية.

وكم يحزّ في نفسي دائماً حين أتبينّ عدم إدراك العرب حقيقة حياة النساء المسلمات. فجهل الغرب هذا لا ينفصم، في أغلب الأحيان، عن نظرة فوقية تصرّ على أن ترى فيهن ضحايا مغلوبات على أمرهن، ولا تستطيع هذه النظرة أن تميّز بين المشارب التي انحدرن منها. فحين زارتنني في لندن، منذ مدّة قريبة، إحدى الروائيات لتحديثني عن ملامح شخصية مسلمة وضعت لها دوراً في روايتها الجديدة، بادرتنني بالسؤال: «كيف لمنادية بتحرّر المرأة مثلك أن تدافع عن إسلام يطالب بختان النساء؟» ثم تشاء المصادفة أن أقرأ في اليوم ذاته مقالاً للمؤرّخة (مارينا وارنر) تصف فيه الإسلام بأنه دين يمارس استئصال بظر نسائه⁽⁹⁾. ورحت أتساءل: أو لم يكن بمقدور هاتين الكاتبتين أن تتجشّما عناء البحث كي يتبين لهما أن ما تتحدّثان عنه إنما هو ممارسة إفريقية لا تمتّ للإسلام بصلّة؟

كذلك غالباً ما نكون عرضة لوابل من مقولات عن «اتفاق الخطبة الرهيب» التي تزعم بأن النساء المسلمات يُكرهن بموجبه على القبول بزيجات ربّها لهنّ آباء قساة. ويأتي هذا الزعم ليدعم ما يُقال خطأ بأن الزيجات المرتبة تعني انتفاء عنصر الاختيار لدى المرأة.

(9) محاضرة مارينا وارنر أمام معهد الفنون المعاصرة، لندن، 19/3/1989، النصّ نشرته ليزا آينيانيزي وسارة ميتلاند في ملفّ تحت عنوان: «ملفّ رشدي»، منشورات (السلطة الرابعة)، لندن، 1989.

لقد تزوّجتُ أختي، عندما كانت في الثامنة عشرة، بهذا الأسلوب، مع أنها أمضت معظم حياتها في الغرب، وكان لا يمكن تمييزها بسهولة عن أي صبيّة غربية. وأمّا الشاب الذي اختارته، من بين الذين تقدّموا إليها، فقد كان يعيش هو الآخر في أوروبا، ومع ذلك فإنه عاد، مثل أختي إلى الوطن ليبحث عمّن يشاركه حياته. وقد وجد كلاهما أنه لأمر طبيعي ومريح أن يسيرا على النهج التقليدي في الزواج، تماماً مثلما يجد أي شاب وفتاة في الغرب أنّ تواعدهما هو أمر طبيعي ومريح. وكانا جدّ سعيدين بأن يتركا مهمّة الحديث عن مستقبلهما للأهل، ولم تكد تمضي ثلاثة أشهر، وهي الفترة الطبيعية للبتّ بهذه الأمور، حتى أصبحا خطيبين ثم زوجين. وحدث الأمر ذاته بالنسبة لأكثر رفيقات صفّي المسلمات في مدرسة الراهبات بدمشق التي كنت أتعلّم فيها عام 1973، إذ إنهن لم يكنن يتصوّرن أن يقدمن على زواج خارج النطاق الآمن للخطوبة المرتبة. ولا يزال هذا النهج متّبعا حتى اليوم بالنسبة إلى الغالبية العظمى من الفتيات السوريات - الثريات منهن والفقيرات سواء بسواء - اللاتي سوف يتناهن الذعر والوحشة لو اضطرتهن الظروف إلى أن يقمن بأنفسهن بمهمّة البحث عن شريك حياة يعيش في ديار الغرب وحده بمنأى عن الأهل. ولا شك أن انحسار دور الكنيسة في الغرب، التي كانت توقّر مكاناً للالتقاء والتعارف الاجتماعيين، يفسّر الانتشار الواسع للوكالات التجارية التي أصبحت تقوم هي بهذا الدور، وبترتيب التواعد بين الجنسين.

ورغم ما تتعرّض له الزيجات المرتبة من استهزاء لكونها بديلاً هزياً للعلاقة الرومانسية فإن حظّها من النجاح لا يقلّ عن نجاح أي أسلوب آخر للزواج. ويسود في الغرب ادعاء رومانسي بأن ثمة أموراً مثل الخلفية العائلية، ومستوى التربية والثقافة، والمال، والطبقة الاجتماعية، والدين لا

تشكّل، إذا ما تباينت، عوامل مفرّقة في العلاقات الشخصية. في حين أن الزيجات المرتبة تنظر إلى تلك العوامل نظرة جدّية، ولذلك يكون العروسان أقلّ عرضة للمفاجآت، فهما يعرفان سلفاً ما ينتظرهما من أمور، فلا يصابان عادة بخيبات أمل، وهذا يعني في مؤسسة الزواج أن نصف المعركة قد تمّ ربحه.

ولعلّ الانتقاد الغربي للمداورات التي تجري في الأسرة المسلمة بشأن الزواج يرجع في بعض جوانبه إلى عدم الإيمان أصلاً بمفهوم الأسرة. فالمناديات الأوّل بتحرّر المرأة، اللواتي كنّ يعملن على الانسلاخ عن الأسرة التقليدية، وجدن في مؤسسة الأسرة نظام إقامة جبرية خانقاً ينبغي رفضه رفضاً تاماً. غير أن هذه النظرة لم تلبث أن اعترها التغيير، إذ إن أعداداً متزايدة من أولئك المناديات بالتحرّر اخترن أن يكون لهنّ أسر، واكتشفن بأن هويتهم إنما تقرّرها بشكل وثيق خلفيتهن العائلية التي لم يعدن يرين فيها دلالات سلبية حسبما افترضن في بداية الأمر.

وتعني الارتباطات المرتبة في المجتمعات الإسلامية بكل بساطة أن الأسر تعتمد إلى تعريف المرشحين للزواج من أبناء وبنات بعضهم ببعض. وجزت العادة أن تقوم والدة الشاب وشقيقاته بزيارة الفتاة ونساء أسرتها بهدف جسّ النبض الأوّلي. فإذا ما توافقت أمزجة الطرفين من هؤلاء النسوة اللواتي لهن الكلمة الأخيرة في هذه الأمور، يقوم الشاب برفقة والده بزيارة ثانية لمقابلة الفتاة وبقية أفراد أسرتها. وإذا ما راق كلٌّ من الشاب والفتاة الواحد منهما للآخر، تحدّث أهلهما في مسألة الخطوبة التي تتيح لهما أن يتعارفا بشكل أفضل، وذلك من خلال سلسلة من نزّهات وزيارات ومناسبات شتى يرافقهما فيها آخرون. وتأخذ بهذه الترتيبات طبقات المجتمع كافة على اختلافها.

إن الفتاة المسلمة لا يمكن إكراهها على زواج لا ترغب فيه مع احتمال وقوعها تحت ضغوط تختلف شدتها من أسرة إلى أخرى؛ وغالباً ما تكون ضغوطاً اقتصادية. وللفتاة الحق في أن ترفض أي شريك لحياتها اختاره لها أهلها، ويتعيّن على المأذون قبل البدء بمراسم عقد الزوجية أن يستعلم منها فيما إذا كانت مقبلة على الزواج بملء إرادتها، ولذلك فهو لا يواصل تلك الاجراءات إلا إذا اقتنع بأنها راضية.

وإذا ما مرّت فترة الخطوبة بيسر وسلاسة، وقرّر الخطيبان أنهما راغبان حقاً في أن يتزوّجا، تبدأ المداولات بشأن عقد الزواج التي يقوم بها عادة أهل الطرفين والتي تدور أساساً حول قيمة المهر الذي سيقدّمه الزوج للزوجة، أي على عكس عادات غير المسلمين. وأذكر كيف أتأبنتي دهشة بالغة لما علمت أن المرأة، عند المسيحيين والهندوس، هي التي تدفع المهر للزوج. ويتألّف المهر الإسلامي من جزئين: الأول منهما هو «المعجل» ويكون عادة نقداً وحلياً، وقد يتضمّن عقاراً، ويدفع للزوجة قبيل إتمام الزواج بهدف منحها بعضاً من الأمن المالي والاستقلالية. وأمّا الجزء الثاني من المهر فهو «المؤجل» ويُدفع للزوجة إذا ما طلقها زوجها؛ ومن شأن هذا المؤجل أن يوفر لها أمناً معيشياً ولو إلى حين، كما يحول دون دخول الزوجين في منازعات طويلة. ومن هنا يصبح موضوع المساومات التي تجري بشأن المهر في البداية أمراً هاماً ومصيرياً لأنه يرسم سلفاً مستقبل الزوجة المالي.

إن العديد من الأعراف الإسلامية تشكّل، بالنسبة إلى مسلمة مثلي، تراثاً إيجابياً لأنها تتناول أمور الموت، والطلاق، واليتم، والشكل، بصورة أكثر إنسانية من تناول الغرب لها، فكلها عادات أثبتت، رغم صرامتها وقدمها، أنها تتماشى جيداً مع الحياة الحديثة في المدن الإسلامية.

فطقوس الحداد، مثلها في ذلك مثل طقوس الخطبة، والزواج، والختان، إنما تفسر أهمية الإسلام في حياة الناس، وعمق ارتباطه بها. ففي سوريا مثلاً، وحتى يومنا هذا، تلزم المرأة بيتها مائة وثلاثين يوماً كاملة بعد موت زوجها عنها. والأصل في أمر هذا الاعتكاف الطويل هو تفادي المنازعة في أبوة جنين قد تكون حاملة به. ولكن هذا الحكم ظل معمولاً به، وأصبح أمراً مقبولاً اجتماعياً رغم أنه تعرض لبعض التغيير كي يتكيف مع الحياة الحديثة. فالنساء اللواتي عليهن الذهاب إلى أعمالهن، أو لتسوق الضروريات، أو لجلب أطفالهن من المدرسة، ولم يكن ثمة من ينوب عنهن في ذلك، لهن أن يخرجن من بيوتهن. ومع هذا فإن المرأة السورية تبقى في ثياب الحداد السوداء لمدة عام كامل بعد موت زوجها، وتتفادى أن تُشاهد في مطعم أو مقصف.

وتختلف العادات الإسلامية بصورة بيّنة بين بلد وآخر، كما أنها تختلف بين طائفتي السنة والشيعة. فنساء الخليج العربي مثلاً يمارسن الحداد لمدة ثلاثة أيام فقط، وأمّا لباس الحداد عندهن فهو الأبيض. ومع ذلك فإن السمة المشتركة في أرجاء العالم الإسلامي هو غياب الشعور بالوحدة والوحشة الذي يلმسه المرء عند الغربي المفجوع بحادثة موت. فالمسلم المصاب بفقدان أحد أهل بيته لا يُترك وحده أبداً طوال أسبوع الوفاة. ففي دمشق مثلاً يتوافد الأقرباء والأصدقاء والجيران إلى منزل المتوفى وتجلس النساء منهم مع نساء الأسرة المنكوبة ويجلس الرجال مع رجالها حتى خروج الجنازة من المنزل. وتكون النساء متشحات بالسواد أو الكحلي أو الرمادي ويجعلن على رؤوسهن أغطية بيضاء. وأمّا غطاء رأس زوجة المتوفى فيكون أسود اللون. ويوصي الدين الإسلامي بأن يُكتفى بالصلاة والدعاء للميت، ولا يستحب النواح عليه لأنه من بقايا

الجاهلية. وما إن تخرج الجنازة ووراءها المشيِّعون من الرجال حتى يرتفع عويل النساء. وقد نهى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم عن النذب والبكاء أمام القبور، بل إنه حثَّ المسلمين على دفن الميت في قبر دارس لا يحمل ما يشير إليه كي لا يصبح محبباً للناس. وقد أخذ المسلمون الوهايون في المملكة العربية السعودية بهذه السنّة، وحين اغتيل ملكهم المحبوب فيصل عام 1974 دفنوه في وسط الصحراء، في بقعة لا يدل عليها شيء. وترمي هذه السنّة إلى تذكير الناس بأنهم في الموت سواسية.

وحين كنت في التاسعة من عمري توفي خال والدتي سعيد الغزي الذي كان أكثر من مرّة رئيساً للوزراء وكان يتمتّع بشعبية واسعة، كما كان الأخ المفضّل لجديتي. ولما كنا، أنا وأبواي وأختي الصغيرة، نقيم معها في دارها فقد هزّتنا جميعاً مصيبة موته، وكانت تلك أول حادثة وفاة تمرّ بطفولتي. وقد سُمح لي آنذاك بأن أشارك في مراسم العزاء. كان كلٌّ من حولي متفرّج الجفون من كثرة البكاء، وكان القارئ الذي جيء به ليلتو آيات من القرآن الكريم كفيفاً؛ وكان نفر من الصبية يأتون من السوق وقد حملوا على رؤوسهم صوان نحاسية كبيرة مُلئت بـ «القوزي»، وهو لون من الطعام يقدّم في المآتم ويتألّف من كرات من ورق العجين الرقيق محشوة بالأرز واللحم والفتق، ولم أكن قد ذقته من قبل. وخلال أسبوع يتناوب الأقرباء والأصدقاء في الإيضاء على هذا «القوزي» على نفقتهم من أجل تأمين الطعام لأسرة المتوفي ولجموع المعزّين الذين يهبطون عليهم. وفي دمشق تستمرّ على مدى عدّة أيام طقوس التعزية بمراسم غاية في الدقّة. فالرجال يأتون لتعزية رجال الأسرة خلال الأيام الثلاثة التي تلي الوفاة وذلك بين فترتي المغرب والعشاء.

ويجلس ذوو المتوفى قرب مدخل بهو الاستقبال ويتبادلون التحية بصمت مع الداخلين والخارجين من المعزين. ولا يمكث المعزي في جلسته أكثر من عشر دقائق يستمع خلالها إلى آيات من القرآن الكريم يتلوها أحد المشايخ القراء على مسامع الجالسين.

أما جلسة تعزية النساء للنساء فيكون وقتها بين فترتي العصر والمغرب أي أنها تنفض قبل حلول وقت تعزية الرجال. وتدخل المعزيات مثني مثني أو ثلاث ثلاث بلباس حداد مناسب ودونما أي زينة وبغطاء رأس أبيض أو قاتم إلى البهو الذي تجلس فيه نساء الأسرة ومن يلوذ بهن وتكون على رؤوسهن أغطية بيضاء. وعندما تدخل المعزيات يجلسن على مقاعد موضوعة قبالة نساء البيت ولا يمكثن أكثر من دقيقتين يقرآن خلالها في سرهن سورة الإخلاص ثلاث مرّات ثم يغادرن لتدخل غيرهن. وفي كل دخول وخروج للمعزيات تقف نساء الأسرة تقديراً لهذه المشاركة التي تتم كل مراحلها، كما في تعزية الرجال، بصمت بالغ.

وقد تبدو طقوس الحداد هذه مغالية في مراسمها الرزينة، غير أنها في الواقع تعين على تخفيف ألم الأسرة المنكوبة لأنها تجعلها وهي تتبع تلك المراسم تنسى مصيبتها ولو إلى حين. وكم تختلف هذه الطقوس عن الأسلوب الغربي المتعجل حيث يقوم بعرض الميت مدير المكاتب الجنائزية التجارية الذين لا يختلفون، في نظري، عن نابشي القبور في شيء.

وللطلاق أيضاً طقوس وأعراف. فبعد أن قرّرنا، أنا وزوجي الأول، الطلاق سافرت إلى واشنطن حيث كان والدي يشغل منصب السفير السوري، وسرعان ما رحلت أبحث عن عمل. ولكن والدي بدا منزعجاً

بل غاضباً لأسباب لم أتبيتها. ولم أدرك هذه الأسباب إلا من خلال جدال جرى بينه وبين أمي فهمت منه أنه كان يريدني أن ألتزم بأحكام «عدة المطلقة» التي توجب عليها ألا تخرج على الناس طوال شهور ثلاثة. والحقيقة هي أن عدم قيام والدي بإيضاح وجهة نظره لي منذ البداية كان يدل على عدم تأكده هو نفسه من المدى الذي ينبغي التقيّد بهذا الحكم الإسلامي في مجتمع غير مسلم. وحين أسترجع ذكرى تلك الفترة أعود وأتمنى لو أنه بين لي رأيه بصراحة، وأقنعني بوجوب الالتزام بذلك الاعتكاف، وساعدني على أن أعتزل الناس، وأشفى من صدمة الطلاق في بضعة أسابيع فلا أسارع إلى الانخراط في مجتمع العالم الخارجي قبل أن أسترّد عافيتي الجسدية والنفسية مما زاد من معاناتي.

تهديد من وراء حجاب

لعلَّ شأن نقاب المرأة في الحياة الإسلامية يشكّل أكثر الموضوعات التي يجادل فيها الغربيون، ولاسيما نساءهم. ففي الولايات المتحدة وأوروبا يسود الاعتقاد بأن غطاء الوجه هو رمز الإسلام بعينه. ولهذا أصبح علينا أن نُذكّر بأن هذا الغطاء هو ذو أصل مسيحي ولم يأخذ به العرب إلاّ حين فتحوا سوريا في القرن السابع بغية محاكاة صفوة المجتمع السوري بعد أن حلّوا محلّها. ومن هنا يجب عدم الخلط بين هذا الغطاء وبين الحجاب الإسلامي الذي يستر شعر المرأة «المثير للافتتان». وفي عهد الرسول ﷺ أخذت بهذا الحجاب زوجاته ثم سائر المسلمات. وقد أوصى القرآن النساء بالألّا يتبرّجن في زينتهنّ، وهذا يعني ألّا تكشف المرأة عن مفاتها وأن تستترّ على عريها أمام الغرباء.

وفي أوائل القرن العشرين بدأ يتسرّب هنا وهناك بعض التراخي إلى قواعد الحشمة الإسلامية، ولا سيما في الأقطار ذات الحكومات العلمانية. غير أنه حيثما كان يحدث التغيير كانت المقاومة تقف له بالمرصاد. وأذكر أنه عندما سادت موجة «التّورة» البالغة القصر (الميني) وسمح لي بأن أرديها انتاب الذعر جدّتي لوالدي التي لم تكن تخرج على الناس دونما حجاب وراحت تتمتم: «الركبة عورة، ومن العيب أن يراها الملاء». وحين بلغت العاشرة وكنت أهمّ ذات يوم بالذهاب إلى أحد مسابح المدينة دخلتُ إلى مطبخ البيت حيث كانت طاهيتنا العجوز

فصعقها أن تراني في لباس السباحة (المايو) وكاد قدر الطعام يسقط من يديها، وانطلقت نحو أمي لتوبّخها وتقول «أفلا تخجلين من ترك ابنتك تعرض جسمها العاري على أنظار الرجال؟» وحين لم تتلقَّ منها جواباً شافياً هرعتُ تشكوني إلى أبي الذي هدأ من روعها وذكرها بأن الرسول ﷺ نفسه حثَّ المسلمين على أن يعلموا أولادهم السباحة والرماية وركوب الخيل.

كانت أيام الاستقبال في بيت جدتي لوالدي مناسبات أشاهد فيها أسلوب لقاءات النساء التقليدي المألوف في كل البيوت: الفقيرة منها والثرية على حدٍّ سواء. فالنساء يجتمعن ويستمتعن بصحبة بعضهنَّ بعضاً بعيداً عن ضغوط أفراد الأسرة الآخرين. وفي بيت جدتي كان صباح «يوم الاستقبال» يحفل بالاستعدادات من كل نوع: فالأوعية الكبيرة تُمَلأ بشراب الليمون الممزوج بحتات قشره، وتُصَفَّ زبادي الحليب المطبوخ مع الأرز والسكر حول فسقية القاعة المظلمة كي تبرّد، ويُعاد ويُستعاد تنظيف كل شيء، فالبلاط يُكَنَس ويُفرك بالماء والصابون، والخزائن تُمسح وتُلَمَّع بالزيت لإبراز نقوش خشبها المطعم، ثم تُمدَّ على المقاعد أغطية بيضاء مغسولة ومنشأة، وتُمَلأ الأطباق الصغيرة بأكوام اللوز الملبّس بالسكر، وتُهيأ النراجيل للمستنات اللاتي رحل عنهنَّ أزواج كانوا لا يستسيغون أن تمارس نساؤهم التدخين.

وبعد أن تدلف النساء إلى المنزل، وتطمئنَّ بهنَّ الحجرات المهيأة لهنَّ، يخلعن الحجاب ومعطف الطريق، ويصبح ذلك القسم من المنزل محظوراً طوال بعد الظهر على الرجال، الأمر الذي يتيح للضيفات أن يكنَّ على سجيتهنَّ وأن يبرزن مفاتن حليهنَّ، وشعرهنَّ المصقّف، وعيونهنَّ المكحّلة، ولا تلبث أن تبديو للعيان الأذرع العارية، والأثواب

التي تكشف عن الصدور والظهور والأعناق. وقد تصطحب بعض هؤلاء النسوة بناتهن العازبات ليكنَّ على مرأى من الباحثات عن عرائس لأبنائهن. وإذا ما حضرت فتاة حديثة الخطوبة فهي تأتي وقد ازينت بما أهدها لها أهل خطيبها من حلي ومجوهرات فتصبح محطَّ أنظار الحاضرات وإعجابهن. وأمَّا اللواتي يحسنَّ العزف يجلبن معهن عوداً أو رقاً لإمتاع الأخريات بمعزوفاتهن، ويتشاركن جميعاً بالغناء أو الرقص أو رواية الحكايات. وأمَّا الورعات من الحاضرات فقد يكتفين بإلقاء واحدة من عظاتهن الدينية.

ولكن جدتي لوالدتي كانت من نسيج آخر. فأسرتها التي تنتمي إلى الطبقة الراقية كانت لا تمسك كثيراً بأهداب الدين. جدتي هذه كانت كمثيلاتها من مثقفات جيل ما بين الحربين العالميتين اللواتي جاهرن بالسفور وبنزع الحجاب، بل إن البارزات من حركة تحرير المرأة في مصر، مثل هدى شعراوي ودرية شفيق، عمدن، بهدف المبالغة في العلية، إلى رمي أغطية رؤوسهن من أعالي أسطح السفن أو من نوافذ القطارات العائدة بهنَّ من أوروبا إلى العالم الإسلامي. لقد كانت مجتمعاتهن في نظرهنَّ، بالمقارنة مع الغرب العلماني والعلمي، جامدة، وخنائقة، ومحكومة بالتقاليد. وعندما بهرتهنَّ الحركة المنادية بحق المرأة في الاقتراع جعلنها قدوتهنَّ في سبيل التحرير.

وفي ميدان العمل السياسي الأوسع أقرت هؤلاء الرائدات مع رجالهن على أن التخلّص من ربة الاستعمار تستدعي الأخذ بالأساليب الغريبة لأنها هي مفتاح القوّة. ومن هنا ظلَّ أكثر الوطنيين حماسة منجذبين نحو ثقافة الغرب مع أنهم هم الذين عانوا الكثير من هيمنة هذا الغرب. وعلى امتداد العالم العربي اتخذت سليلات ذلك الجيل الثوري

نمطاً من الحياة لا يختلف في شيء عن نمط حياة النساء الغربيات الموسرات: فقد التحقن بالجامعات، وفزن بوظائف مهنية، وتزوَّجن عن حبّ، وأنشأن أسرهنّ على الأسلوب الحديث. كما أن الناس راحوا ينقلون باستمرار الأنماط الغربية إلى حياتهم حتى إن آخر تصاميم الأزياء كانت ما تكاد تظهر في باريس حتى تنتشر في دمشق، وأصبح رجال الطبقة الراقية ونساؤها يتراقصون في باحات الدور القديمة على آخر أنغام (التانغو) و(الفوكستروت) التي تصدح بها الأسطوانات الأوروبية. وأمّا الفن التشكيلي الغربي فقد غدا محط الإعجاب والدراسة وراح يطبع، كما في الغرب، الأساليب والأشكال بطابعه.

وعندما تزوّج والداي عام 1956 كانت بدعة الأثاث «التكعيبي» في ذورتها، فعمداً من أجل أن يخلقا تناغماً مع أثاث غرفة نومهما الحديث إلى رمي الأثاث التقليدي المصنوع من الخشب المصدّف والبروكار الدمشقي، ووضعاً مكانه طاولات جانبية مصمّمة على شكل قيثارة الرّسام (برك) وانتقياً ستائر مرسومة بطريقة (بيكاسو). إلّا أنّهما ندما فيما بعد على ما فعلا وعلى تفريطهما بذلك الأثاث التقليدي الجميل.

لقد نجمت هذه الاتجاهات عن عوامل عديدة، منها ازدهار فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وبروز طبقة متوسطة مثقفة، وأمل مشترك بأن الانتفاضات الثورية التي كانت حينئذٍ تهزّ المنطقة لا بدّ أن تؤدّي إلى تجديد سياسي بمشاركة شعبية أكبر. وكان عبد الناصر بطل تلك الأيام، فما إن يتحدّث إلى الناس حتى تلتصق شعوب الوطن العربي بأجهزة الراديو؛ وعندما أمّ قناة السويس عام 1956 تراكضت الجماهير في الشوارع وهي تهتف عالياً بعفوية بالغة احتفالاً بيزوغ عهد جديد.

كان ثمة شعور بأن «العالم الثالث» بدأ يستيقظ وأنه واقف على عتبة

مستقبل سيصنعه بنفسه. كان عبد الناصر أحد أركان الصرح العظيم الذي ضمَّ معه نهرو ونيكروما وسوكارنو، وهم الزعماء الأباة الذين كانوا أوائل من مثلوا بصدق تطلّعات شعوبهم ومصالحها. لقد كانت تلك الفترة بحق ذروة المدّ القومي، ثم جاءت خلالها حرب الاستقلال التي خاضتها الجزائر ضد فرنسا، على مدى ثماني سنوات، لتقدّم نموذجاً للنضال ضد الاستعمار ولتلهب مشاعر الجماهير وتؤجّجها. وكانت جميلة بوحيرد واحدة من بطلات ذلك النضال، فقد تعرّضت لتعذيب سجّانيتها الفرنسيين وتنكيلهم، وصارت قدوة لجيل كامل من النساء الجزائريات اللواتي غدون فدائيات في حرب «الليون شهيد».

وفي أوائل الستينيات من القرن العشرين، وبعد أن كانت حرب الاستقلال قد تكلّلت بالنصر، قامت جميلة بوحيرد بزيارة رسمية إلى دولة الكويت، وكان على رأس مستقبلها في المطار وزير التربية ومعه لفيق من المدرّسات المحجّبات. وعندما أطلّت جميلة من باب الطائرة وبدأت سافرة يتطاير شعرها في الهواء، رأى الوزير ألاّ يحرّجها فاستدار نحو المعلّّمت وأمرهنّ أن ينزعن الحجاب بسرعة. ولا شكّ أن روح تلك الفترة هي التي جعلته يتصرّف على هذا النحو.

ولكن شتّان ما بين الأمس واليوم. فلا أحد يمكن أن يتصوّر الآن أن يأمر مسؤول في بليد إسلامي ما النساء بأن ينزعن الحجاب دون أن يؤدّي ذلك إلى موجة من الاحتجاج والشغب. ولا يرجع سبب هذا التغيّر إلى تنامي الحركة الأصولية فحسب، بل هو قبل كل شيء نتيجة أن الحجاب لم يعد يُنظر إليه على أنه رمز لتقليد مهترئ ولى زمنه وإنما أصبح سبيلاً واضحاً لتأكيد الهوية الدينية والثقافية والسياسية التي تعكس المشاعر السائدة في هذه الأيام.

إن الأخذ بالحجاب من قبل شابات مثقفات منغمسات في السياسة، ومنحدرات من عائلات علمانية، أصبح يمثّل في ثمانينيات القرن العشرين ظاهرة حياتية محتّمة في أكثر المدن الإسلامية تعود إلى أسباب شتى؛ ولكنها تعبّر قبل كل شيء عن خيبة أمل أفراد هذا الجيل في الذي أنجزه أهلوه. فعلى امتداد الوطن العربي تكشّف الاستقلال عن أنه لم يحقق الآمال التي عُقدت عليه، إذ لم يقم ثمة نظام اجتماعي جديد على أساس من العدل، بل حدث العكس من ذلك حين ساد الفساد والقمع، كما أن الهزيمة في الحرب أدّت إلى فقدان المزيد من الأرواح والأراضي. ورغم كل بلاغة الكلام العربي فقد ظلّت الهيمنة الإسرائيلية التي يدعمها الغرب هي السائدة دونما منازع. أمّا تضامن «العالم الثالث» فقد انهار تماماً. وبينما كان يمكن أن تلعب الثروة النفطية الموجودة في دول الجزيرة العربية والخليج المستقلّة دوراً في التغيير نحو الأفضل فإنّ المصالح الغربية كانت لها الغلبة دائماً على التطلّعات العربية، كما أن المنتجات الغربية بمختلف أنواعها وألوانها الثقافية والمادية راحت تغرق أسواق العرب.

وأمام هذه النكسات، لم تعد النساء المسلمات المناديات بالمساواة يحذون حذو النساء الغربيات، ولم يعد الغرب المفرط في إباحيته يجذبهن كما جذب جدّاتهن من قبل لأنهنّ أصبحن يرين فيه علماً موبوءاً بالخدّرات وبالإيدز، وباستغلال النساء، وباللامبالاة بالآلام شعوب العالم الأخرى. وأصبح من نافلة القول إن القضايا التي تعنيهن ليست هي القضايا التي تهتمّ بها الغربيات المناديات مثلهنّ بالمساواة. ففي أواخر السبعينات عُقد في اسكندنافيا مؤتمر بمناسبة يوم المرأة العالمي، وكان بين الوفود العربية المناضلة الفلسطينية فاطمة البرناوي التي كانت قد أمضت

سنوات طويلة في المعتقلات الإسرائيلية حيث تعرّضت لأنواع من التعذيب، وعندما لم يتمكن سجانوها الإسرائيليون من انتزاع أي اعترافات منها أكرهوها على مشاهدة والدها وهو يتعرّض أيضاً لتعذيبهم. وما أزال أذكر استغرابها عندما وصلت إلى المؤتمر وراحت تستمع إلى خطابات مطوّلة تتحدّث فيها النساء الأوروبيات المناديات بالمساواة عن حقوق المرأة السحاقيّة. ومع أن الكثيرين لا يستخفّون بأهمية المناقشات الدائرة حول الجنس في إطار حركة المساواة النسائية الغربية فإن المتطلّبات السياسية لمجرّد حفظ البقاء في الشرق الأوسط لا بدّ أن تجعل تلك المناقشات تبدو بمثابة ضرب من الترف.

واليوم، عندما ينظر العرب والمسلمون إلى مجتمعاتهم يرون فيه محاكاة هزيلة للحدائث، فلا هي شرقية ولا هي غربية بالمعنى الصحيح، بل هي بالتأكيد شيء لا يبعث على الرضا. ومن هنا لم تكن فورة الإحياء الإسلامي إلا ردّة فعل محتمّة على هذه الحال. ولكن النساء اللواتي قرّرن وضع الحجاب الذي هو رمز للالتزام الإسلامي، لم يتخلّين عن المكاسب التي حقّقتها جدّاتهن من قبل. فكما كان نزع الحجاب قبل خمسين عاماً يمثّل اختياراً سياسياً مارسته المرأة بجلء حريتها وكان له نتائج جليّة، فإن قيام المرأة اليوم بوضعه من جديد إنما يمثّل أيضاً، كما بالأمس، قراراً بالغ الأهميّة نابعاً من اختيار سياسي.

إن هؤلاء النساء لا ينكفنن إلى ماضٍ بالٍ ولا يرغبن في الانزواء في بيوتهن متجلببات بالاحتشام، فغالبيةن ذوات اختصاصات مهنية، ويعملن طبيبات، ومدرسات، وصيديلات، ومحاميات. إنهنّ نشطات في العمل السياسي، ويشكلن ما يمكن وصفه بتنظيم للأخوات المسلمات لا يفترق كثيراً عن تنظيم الإخوان المسلمين ولكن دون وجود

أية صلة بينهما. إن ارتداء الزي الإسلامي يمنح هؤلاء النساء قدراً أكبر لا أصغر من الحرية والحركة. فهذا الزي المتقشّف وعقلية من يشتملن به يجعلانهن أقلّ عرضة لمراقبة أهلهن الدقيقة. كما يمكن للحجاب أن يجعل النساء أكثر تحرراً. فهو يجنبهن أن يكنّ مجرد رموز جنسية أمام الناظرين، وأن يقعن في فتح الثوب الغربي وتعاليم الأزياء الغربية. ومثلما وجدت المناديات بالمساواة في الغرب علاقة جدلية بين الثياب النسوية وبين اضطهاد النساء، فإن المسلمات المناديات بالمساواة رفضن أيضاً الرموز الخارجية للفتنة الجنسية. بل يمكن القول إن الحجاب، حين يضع مسافة بين من ترتديه وبين العالم الخارجي، فإنه يُعني حياتها الروحية ويجعلها بمنأى عن المشاغل المادية، كما أنه يلغي الفوارق بين الطبقات ويخلق نوعاً من التضامن بين لابسات الزي الواحد. وحين تبدو فيه النساء جميعاً متشابهات فإنه يكون قد خلق فيما بينهنّ مساواة حقيقية. ولما كان هذا الزي يخفي الثياب المترفة، الباهظة الأثمان، فإنه يكون قد التزم بالوصية الإسلامية الداعية إلى عدم التباهي والتفاخر. وللمعطف الداكن الطويل الذي ترتديه المحجّبات أهمية ماثلة، ويمكن تشبيهه بالعباءة القائمة اللون التي كان الناس يلبسونها في (فلورنسا) إبان عهد النهضة بعد صدور قوانين محاربة الترف. وقد قدّر لي أن أراقب ظاهرة الحجاب عن كثب، ذلك أن حفيدة خال أمي، لمي، أخذت به منذ كانت في السادسة عشرة. وكانت جدّتها لأمها، وهي زوجة لرئيس وزراء سوريا في خمسينيات القرن العشرين، قد رمت بالحجاب وهي في صدر الشباب. وأمّا أم لمي فقد درست الحقوق في الجامعة، ومارست المحاماة، وكانت أول امرأة في سوريا تقدّم برنامجاً أسبوعياً على شاشة التلفزيون وكانت شابة جميلة، ناجحة في عملها، تزوّجت الرجل الذي

أحببت، وكانت مستقلة ومتحررة ومتشربة بالنهج الغربي كسائر النساء في أسرتها. ومن هنا قوبل قرار لمى بالاستنكار والامتناع اللذين ازدادا حين أصبح ارتداؤها للحجاب يعني التزاماً ببعض النشاطات الإسلامية. وشيئاً فشيئاً تكيف أفراد أسرتها مع ما آلت إليه، إلا أن كل من يأتي لزيارتهم يأخذه العجب حين يرى واحدة من بناتهم متأزرة بزي يجعلها أشبه براهبة إسلامية عصبت رأسها بوشاح، وارتدت جوارب سمكية، واشتملت، حتى في قلب الصيف، بجلباب طويل الأكمام حتى لا يرى منها سوى وجهها ويديها، في حين أن كلاً من أختيها ترتدي ثوباً صيفياً يكشف من جسمها أكثر مما يخفي.

هذا وإن للحجاب عدداً من المزايا العملية. وكما تتلقّى المناديات الغريبات بالمساواة دعم جماعات مؤيدة لهنّ فيها الأصدقاء والمعارف والوسطاء، فإن الأمر كذلك بالنسبة لمثيلاتهنّ من المسلمات. وهناك ما يشبه حركة نسائية مستخفية في معظم الأقطار الإسلامية حيث تشكل تلك الحركة بديلاً لأجهزة السلطة ومراكز النفوذ.

والنساء اللواتي ينجذبن إلى هذه الحركة هنّ بصورة عامة أولئك اللواتي تعلّمن ثم شققن درباً لهنّ في الحياة، فتعمد صديقاتهنّ المسلمات الملتزمات إلى تشجيعهنّ على ارتداء الحجاب، إذا لم يكن قد وضعنه من قبل. ويلتقي الكل في تجمّعات يتشكّل منها ما يشبه الخلايا، وسرعان ما تكتشف أولئك النساء بأن تلك الشبكة توفر لهنّ مزايا حقيقية: فواحدة من الأعضاء مثلاً تعرف كيف تحصل على دواء مفقود من السوق، وأخرى تستطيع تدير أماكن للأطفال في مدارس مزدحمة، وثالثة تعرف صاحب نفوذ في إحدى الوزارات. ولكل هذه الارتباطات فوائد جمّة في الدول النامية حيث الحياة صراع يومي مستمرّ وحيث لا

بدّ من استخدام ضغط أحد أصحاب النفوذ من أجل قضاء حاجة ما. يضاف إلى ذلك أن هذه الشبكة توفر خدمة التزويج، فهي تعثر على أزواج للعازبات من أعضائها، كما أنها تكون بمثابة موئل للعلاج النفسي الجماعي تتحدّث فيه العضوات عن مشاكلهنّ الشخصية ويتلقين النصيح والعون.

ولا شك أن هذه الجماعات قد يعترها التعصّب، ويساورها الظن بأنها أكثر قدسيّة من الآخرين، وتتناول الحياة بطريقة أحاديّة النظرة. وإذا كان الانتماء إليها يبدو جذاباً، إلاّ أنه يمكن أن يتحوّل إلى قيد يحدّ من خيارات المنتمية على المستويات كافة. ولا شك أن من ينظر إلى هذه الجماعات قد يميّج تزمّتها المفرط مثلما يميّج التطرف والتعصّب في كل الأديان، إلاّ أن عليه ألاّ ينسى أن الغضب والإحباط هما سببا هذا التزمّت وهما اللذان يؤجّجانه.

إن العقل الغربي اللاديني لا يستطيع أن يفهم مظاهر الحماسة الدينية التي تتبدّى في النساء المحجبات، وفي الرجال ذوي البشرة الداكنة واللحي الكثيفة، ويرى أنها غير مقبولة، بل هي مخيفة. فالمسلمون حين يتظاهرون بأعداد غفيرة، ويلوّحون بقبضاتهم، ويتشّبثون بدينهم بشغف بالغ، ويندّدون بالغرب، إنما يثرون قلقاً، وردّة فعل دفاعية غريزية يمكن تفهمها. غير أنه بالمقابل لا بدّ للمرء أن يتذكّر أن تلك الحشود التي توحى بالتهديد، غالباً ما تشعر أنها هي الواقعة تحت التهديد. ولهذا تجد في التولّه بدينها أماناً يقيها من عالم عدواني يحيط بها. كما أن الاعتصام بالعقيدة التي تجمع فيما بين المسلمين إنما يخلق في زمن تمخّضت فيه الوحدة العربية وكذلك تضامن العالم الثالث عن إفلاس تام. وهناك بالطبع تعارض حقيقي لا يمكن إخفاؤه بين غليان الدهماء

وبين مثل الفردية الغربية وما يتصل بها من حقوق وحرّيات. غير أن المسلمين يرون أنه قبل هذا التعارض الفلسفي يأتي تعارض آخر بين غربٍ متسلّطٍ وشرقٍ لا يزال يكافح ويناضل. ولهذا كله أدّت الإحباطات السياسية والاقتصادية إلى تنامٍ للأصولية في جميع أرجاء العالم الإسلامي.

وفي الوطن العربي، تعتبر تونس بشكل عام البلد الذي قطع أكبر شوط على طريق العلمانية، وصان حقوق النساء أكثر من أي قطر عربي آخر. وفي أوائل ستينيات القرن العشرين حاول بورقيبة الذي عُرف آنذاك باسم «واقعي السياسة العربية» أن يسوق مواطنيه بعيداً عن تقاليدهم التي كان يرى فيها عثرة على طريق التقدم - فقد يشير إلى امرأة واقفة بين الجموع ويأمرها بأن تنزع عنها حجابها «السخيف»، بل إنه عمد في شهر رمضان إلى شرب كأس من عصير البرتقال نهاراً جهاراً، مدّعياً بأن صيام شهر كامل لا يمكن المرء من أداء عمله بشكل جيّد. وجاءت التشريعات المستقاة من القوانين الغربية لتدعم آراء بورقيبة هذه وتتسبّب في أن تتسلّل العلمانية إلى عمق الحياة التونسية.

ومع ذلك كله، لم يكد ينصرم عقدان حتى برزت، في أواخر حكم بورقيبة، حركة إسلامية سياسية شكّلت أقوى تحدٍّ للنهج الذي أقامه. والحقيقة هي أن تونس كانت نموذجاً لظاهرة تفسّنت، لا في الشمال الإفريقي وحده، بل في أرجاء العالم الإسلامي كلّه؛ كما أن جارتها الجزائر شهدت اضطرابات الخبز التي هزّت البلاد عام 1988 وأكرهت الحكومة على إجراء إصلاحات. وقد تجلّت في هذه الأحداث جسارة نابعة من الدين لا تعرف الخوف. فالمعاناة الاقتصادية القاسية جعلت الناس يتّجهون نحو الله بعدما يتسوا من مجيء الخلاص على أيدي حكّامهم.

وبعد عزل بورقيبة بوقت قصير عام 1988 حدث أمر غريب يلقي الضوء على مشاعر الدهماء. فقد أرسلت المملكة العربية السعودية إلى تونس معرضاً جوّالاً يضمّ صوراً عن الحج إلى مكّة ومجسّماً كرتوتياً للمسجد الحرام، تبدو في وسطه الكعبة التي هي قبلة المسلمين في صلاتهم. وتسبّب هذا المعرض في حدوث مشاهد أقرب ما تكون إلى الهيستيريا الدينية، إذ كان الناس يصطقون مع أولادهم طوال الليل بانتظار أن تتاح لهم فرصة الدخول إليه. وذهب المستون منهم إلى المعرض يراودهم الأمل بأن يموتوا في داخله وكأنهم ذاهبون إلى مكّة نفسها. وكان المعرض يغطّ بالحشود، وكان الازدحام على أبوابه هائلًا حتى إن عدداً من النساء الحوامل لم يستطعن الخروج فوضعن مواليدهنّ في داخله. وكان الناس يبكون بوله ديني بالغ مثلما يبكون في الحجّ الحقيقي، وما إن يغادروا المعرض حتى يقوموا بتهنئة بعضهم بعضاً كما لو أنهم أنهوا من فورهم أداء مناسك الحج!

أقوال وأفعال

كان القرآن يشكُّل، خلال طفولتي، محور حياتنا. وكانت جدّتي تحتفظ بنسخة منه مكتوبة بخط اليد آلت إليها من والدها، وقد وضعتها على حامل خشبيّ قرب سريرها لأنها كانت ترى فيها أثمن ما تملك. وكنت كلما دلفت إلى غرفتها أرنو إلى هذه النسخة وأحرص على ألاّ أمسها.

وحين بلغت السابعة من عمري طلبتُ أمّي من ابن خالتي بسّام، وهو فتى مجدّد، ورع، ويكبرني بأربع سنوات، أن يعلمني فاتحة القرآن، فقد رأته، خلافاً للمألوف، أن من الأفضل أن يقوم بهذه المهمة فتى يافع من أفراد الأسرة بدلاً من شخص أكبر سنّاً وذلك كي تجعل هذا الدرس الهام أكثر ما يكون إمتاعاً. كانت بلاشك على يقين من أن ذلك الدرس سيطلع نظرتي إلى الدين طوال أيام حياتي. وكنت قد أمضيت بعد ظهر ذلك اليوم ألعب مع بسام وأخيه لعبة تركيب الكلمات المبعثرة (سكرابل)، وظننت أن الدرس ما هو إلاّ تنمّة لما كتأ فيه من لعب ممتع.

دخلنا إلى غرفة الجلوس الصغيرة التي أغلقت مصاريع نوافذها الخشبية الخضراء لتحجب شمس الأصيل. وبعد أن جلستُ أخذتُ أمرجح ساقِيّ يمّنة ويسرة وأنا أكرّك ضاحكة، فما كان من بسام إلاّ أن طلب مني بنبرة وقور أن أتخلّى عن عبثي، وأفهمني أنني مقبلة على تعلّم شيء سيكون أهمّ من كل ما عرفته من قبل أو سوف أعرفه من بعد،

وأنه يتعين عليّ أن أدخره في عقلي إلى الأبد. وقد بهرني ذلك التغيير الذي طرأ على بسام، والطريقة الجادة التي حدّثني بها، فعزمت على ألا أتخاذل وجلست ساكنة أصغي وأبذل في التركيز قصارى جهدي.

تلا بسام الفاتحة ببطء ودقّة. ثم كرّر الآية الأولى وحدها، وراح يطلب منّي أن أعيدها مرّة بعد مرّة حتى حفظتها عن ظهر قلب. ولم يعتمد إلى شرح معاني الكلمات التي نقرأ. كما أنني، ومع كل فضولي، لم أطلب منه ذلك، وكان ثمّة اتفاقاً خفياً تمّ بيننا يقضي بأن أحفظ الفاتحة أولاً، ثم تُفسّر لي فيما بعد، والأفضل أن يقوم بذلك شخص أكثر منه معرفة.

وعندما تيقن ابن خالتي من أنني قادرة على تلاوة الفاتحة دون تلعثم، رضي بأن أنطلق إلى أمّي التي اكتشفت أنها تجلس بالقرب منّا على الشرفة الملاصقة للغرفة حيث كان بمقدورها أن تسمع كل ما دار بيننا.

وهتفت بصوت مفعم بالحماسة: «أماه. لقد حفظتها كلّها! فهلاً قرأتها لك؟» فأومأت بالإيجاب ورحت أتلو:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم ولا الضالين * آمين﴾.

وهنا ضمتني أمّي بقوة إلى صدرها وقالت: «إنني فخورة ببلوغك سن الرشد، فما قد أصبحت في سنّ تمكّنك من التمييز بين الخير والشرّ. وعليك أن تسلكي بنفسك مسلكاً يرضي الله. ولتتمني بالفاتحة كلما أصابك خوف أو حزن أو تخاذل فينفرج كربك».

ومنذ ذلك اليوم صار والدي في مساء كل خميس يختار آيات من القرآن لنقرأها معاً، وكان يعمد إلى شرحها مسهباً، ويسرد بعضاً من قصص النبي ﷺ لإيضاح نقطة ما أو ليزوّدنا بإحدى العِبَر. وكان يجعلني أقوم بنسخ تلك الآيات في دفترتي، ومن ثم ينظر في ساعته ويقول: «لديك مهلة أربعين دقيقة لتستظهرها، وسأناديك بعدها لأسمعها منك».

آه! لكم هي حية في ذاكرتي تلك الأمسيات الشتائية! كنت أجلس في غرفة الاستقبال الباردة التي أطفئت مدفاتها لإبعاد النعاس عن عيني، وكانت تنتهي إليّ أصوات أفراد أسرتي الآتية من غرفة الجلوس الحميمة، كما كانت تصل إليّ معها، عبر الممرّ المظلم، رائحة الكستناء المشوية، فأشحن همّتي لأنهي ما أنا فيه بسرعة وأعود إليهم. وغالباً ما كانت تشرد عيناى نحو رفوف المكتبة وتجولان بين كتبها الفرنسية والإنكليزية وأجدني أتناول نسختي من رواية (جين آير) وأقرأ بعض جملها. ولكنني أكتشف أن الوقت بدأ يدهمني، فأعود إلى الاستظهار حين أسمع دقات ساعة الجدار تشير إلى انقضاء خمس عشرة دقيقة. وما إن أتغلب على السطور الثلاثة الأولى الصعبة حتى يغدو النصّ فجأة سهلاً ليّناً وأراني قد نسيت كل شيء سوى ما أمامي من كلمات.

لقد علّمتني تلك الساعات التي أمضيتها في دراسة القرآن حبّ اللغة. ولكن الآيات التي تعلّمتها وأنا طفلة لم أستعرفها عندما قرأتها، بعد سنوات عديدة، مترجمة إلى الإنكليزية، ولذلك لم يكن بمقدور أحدّ تمن أعرف في الغرب أن يشاركني استمتاعي بجمالها. فالقرآن يغدو في أي لغة أخرى، غير لغته الأصلية، عادياً بل غير مفهوم. ولقد جاء في القرآن نفسه أنه أنزل «قرآناً عربياً»، أي أن اللغة التي أوحى بها

القرآن لا يمكن ترجمته. فالمسلم الذي يقرؤه بالعربية وغير المسلم الذي يقرؤه مترجماً إنما لا يقرآن الكتاب ذاته. ولكنني أرى أن المسألة هي أعمق من أن تكون مجرد صعوبة في ترجمة عملٍ فنيٍّ ما، بل هي مسألة تتعلق باللغة العربية نفسها التي يبدو أنها تستعصي على الانتقال إلى لغات أخرى. والواقع أنني لم أعثر على أي ترجمة ناجحة لقصيدة عربية بل حتى لرواية عربية ناهيك عن ترجمة للقرآن. ولعلَّ قَدْرَ نصوصنا العربية هو أن تظلَّ، لمن يقرؤونها مترجمة، شبه مفهومة لا أكثر.

وإنني لأتعاطف مع المسلمين الذين لا يعرفون العربية فيتعلّمون القرآن عن طريق الاستظهار دونما فهم، وبذلك لا يقدرّون على استيعاب كامل معانيه ولا على إدراك كنهه قوة بلاغته. ورغم أن إيمانهم لا تشوبه شائبة، إلا أن ثمة شيئاً يظلّ ينقصهم، فهم لا يتوصّلون إلى فهم هذا الإعجاز اللغوي إلا من خلال غلالة من ترجمة مشوّهة. وأمّا غير المسلمين الذين لم يدرسوا العربية فهم باعتقادي غير قادرين على استيعاب ما يقوله القرآن، ويظلّ بالنسبة إليهم نصّاً صامتاً فلا تجدي في شيء كل محاولاتهم لاستنباط كنهه.

ويمكن إيضاح كيف يستحوذ القرآن على الذين يسمعونه باللغة العربية من خلال قصّة إسلام عمر بن الخطّاب، أحد أبرز رجال قبيلة قريش التي ينتمي إليها محمّد ﷺ وكان واحداً من الدّ أعداء الرسول ﷺ. وتقول القصّة إن عمر اجتاح وهو غضبان حانق مسكن أخته بعد أن علم أنها دخلت مع زوجها في الدين الجديد. وكان القرآن الذي حاربه عمر بكل ما أوتي من قوّة يُرْتَلُّ في إحدى حجرات البيت، فما كان من عمر إلا أن توقّف ثم أصاخ السمع، ولم يتمكن من مقاومة

جبروت لغته فأعلن إسلامه على الفور، وأصبح بعد وفاة الرسول ﷺ يوضع سنين أحد أعدل خلفاء المسلمين.

ولما كان القرآن هو المعجزة الوحيدة التي يؤمن بها المسلمون (إيماناً لا يقل عن إيمان المسيحيين بقيام يسوع من القبر أو بمشيه على صفحة الماء)، فإنهم يؤمنون بقصة اعتناق عمر للإسلام بغتة بعدما سمع كلام الله، مثلما يؤمن المسيحيون بتحوّل شاوول، الضابط الروماني اليهودي الذي كان يطارد المسيحيين، إلى النصراني بولس الذي يخاف الله بعد أن تراءى له نور المسيح عليه السلام على «طريق دمشق».

وفي بيتنا الذي لم يكن يعد كثيراً عن (الطريق المستقيم) الذي مشى عليه بولس، كنا نصحو على رائحة «الحريرة» التي كان يعدّها لنا أبي في صباح كل عطلة أسبوعية. وإنه يتراءى لي الآن وقد وقف أمام موقد المطبخ وهو يحرك الطحين والسمن والسكر والماء حتى يتحوّل المزيج إلى شراب لزج ذهبي اللون كان يُقال بأنه شافٍ لكل الأوجاع التي تدرّج من سعال الصدر إلى تباريح الهوى.

وبينما كنا نرشف ذلك الشراب الساخن الحلو المذاق، كان أبي يعيد على مسامعنا قصصاً من سيرة الخليفة عمر (وهي قصص كان قد سمعها من والده، وسيحكيها هو لأحفاده في مطابخ أخرى في أوروبا وأميركا). كانت قصة «الحريرة» هي الأثيرة عندي، وقد ارتبطت بالإفطار الصباحي الذي كان يعدّه لنا أيام الجمع، وتقول القصة: كان أمير المؤمنين الخليفة عمر ينسلّ كل ليلة من مسكنه متنكراً في عباءة مهترئة ويتجوّل في أزقة المدينة الخلفية ليطلع بنفسه على أحوال المسلمين. وفي إحدى الليالي ذات البرد القارس وقعت عيناه على أطياف أشخاص تكوّموا بعضهم على بعض. وحين اقترب منهم تبين

أنهم امرأة أحاط بها أطفالها وهم ينشجون. وسمعتها عمر تقول لهم: «اسكتوا يا صغاري فأتمكم تعدّ لكم طعام العشاء». ولكن حين ازداد عمر اقتراباً وحدّق في القدر التي أمامها وجد أنها لا تحوي سوى ماء وحصى. وعندما لمحت المرأة ذلك الغريب المهلهل الثياب همست بصوت بائس: «فليرحم الله ذوي البطون الخالية». فصعق الخليفة مما رأى وردّد مع المرأة: «آمين». وما كان منه إلا أن انطلق بسرعة، ثم قفل عائداً وهو يحمل كيساً ملآن زادا، وأضرم النار واستخرج الحصى من القدر ورماها بعيداً، وبدأ يعدّ «الحريرة»، وانكبّ على تحريكها رويداً رويداً حتى نضجت وأصبحت شراباً ساخناً شهياً، ثم غرف منها وقدمها للأُم ولأطفالها، كما زوّدهم بمؤونة من دقيق ولحم وتمر. وفيما بعد أجرى عليهم مالاّ ينفقون منه.

ومنذ نعومة أظفارنا تعلّمنا، أختي وأنا، أن الطعام شيء مقدّس، ولذلك كان يطلق عليه اسم «نعمة»، أي أنه عطية من الله وأن هدره هو إثم. وكان ممنوعاً علينا أن نترك فضلة من طعام في طبقنا، لا لأن ذلك منافٍ لحسن السلوك بل لأن الطعام شيء ثمين، ولأن هناك معسرين يتوقون إليه. وكان علينا، إذا رأينا كسرة خبز مرمية على أرض الشارع، أن نلتقطها، وأن نقبلها، وأن نرفعها حتى تمسّ جبهتنا، ومن ثم نضعها في مأمّن من الأذى ومن وطء الأقدام. وعندما كان عمّي نزار يعمل دبلوماسياً في لندن، جاءتته من الوطن في زيارة أمّه المسنّة التقية. وبينما كانت تصحبه في إحدى حفلات الاستقبال، لاحظت أن قطعة الخبز سقطت من طبق أحد المدعوين، فانحنّت، والتقطت القطعة المرمية على السجّادة، وقبّلتها، ولامست بها جبهتها، ثم أعادتها إلى طبق ذلك الغربي الذي فغر فاه دهشة واستغرباً.

حين كان الطعام يُطهى في المنزل، كانت العادة تقضي، أيام طفولتي، بأن يُرسل نصيب منه إلى الجيران، وغالباً ما كنت أنا التي أكلف بإيصاله، إذ لم يكن من اللائق أن يشتم الجيران رائحة الطعام ولا يتذوقوه. وحتى أيامنا هذه، لا تزال الأطعمة تنتقل صعوداً وهبوطاً على سلالم الأبنية الإسمنتية الحديثة. ولكن الناس، فقراء وأغنياء، كانوا في الأيام الخوالي يعيشون متلاصقين أكثر مما يفعلون اليوم، وكانت كل أبنية الشارع الذي ولدت فيه على هذا النسق من العيش المشترك. كان الفقراء يقطنون إمّا في الأقبية وإمّا في غرف مبنية على السطح، بينما يسكن من هم أفضل حالاً في الطوابق الكائنة ما بين السطح والقبو. وكان أطفالهم جميعاً يلعبون معاً. وكانت الأسر، مهما كانت طبقتها أو مقادير دخلها، تتزاور فيما بينها وتساعد بعضها بعضاً. لقد كان ذلك التفاعل بين مختلف الطبقات صورة للنمط التقليدي للمجتمع الإسلامي الذي زكاه الرسول محمد ﷺ حين قال: «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء». ولم يكن ذكر الله، ووصايا نبيه، وعبارات التقوى والورع مقصورة على الأيام الفضيلة ولا على أوقات الصلاة بل كانت جزءاً لا يتجزأ من كل حديث يومي. ولا يمكن نكران ما لهذه الأقوال والوصايا من أثر على المواقف والسلوكيات. ولم يحدث إلا في السنوات الأخيرة أن ترافق انهيار القيم الإسلامية مع تغيير معالم المدن الإسلامية التي أصبحت ذات نمط غربي وبرزت فيها أحياء جديدة مقصور سكنها على الأغنياء وحدهم. وتبع ذلك ظهور نوع من الفصل بين طبقات الناس أدى بدوره إلى تغيير طبيعة الحياة الاجتماعية وتعريفها من ثرائها القديم. ففي طفولتي كان عيد الفطر الذي يحل بعد انتهاء شهر رمضان مناسبة مبهجة يحتفل بها الجيران معاً، فقراء وأغنياء. وأمّا

اليوم فمن المؤسف أن الاحتفالات بالمناسبات الإسلامية أصبحت خاوية من معانيها ومنحرفة عن جوهرها تماماً كما حدث للاحتفال بعيد الميلاد في الغرب الذي تسود خلاله نزوة الاستهلاك المفرط والتباهي بعرض الثروات التي حرم منها الفقراء، وهذا كله مناقض لروح تلك المناسبات الدينية.

إن تعلم التمييز بين «الحلال والحرام» وبين «الطاهر والنجس» يدخل في صميم التنشئة الإسلامية. ومن هنا تشابكت هاتان المجموعتان من التعاليم مع كياني الذاتي وأصبحتا تمليان عليّ أنواعاً شتى من السلوكيات: بدءاً من كرهى اقتناء الكلاب في المنزل، إلى ذعري من الفئران، إلى مقتي الشديد لرائحة لحم الخنزير (وكلها نجسة لدى المسلمين)، إلى التزامي بالتنظيف والغسيل، إلى طريقتي المترتبة في التدبير المنزلي. ويدلّ هذا كله على أن السلوكيات الإسلامية تُعنى بالأمر العملية عنايتها بالأمر النظرية والمجردات.

ويعتبرني مرتين كل عام دافع غريزي لا يقاوم لأشعر في حملة تنظيف كاملة لمنزلي، وهو من القوّة بحيث يجعلني أهّب من نومي في منتصف الليل لأخطط لحملة التنظيف هذه. ولقد كانت أمي تقوم بهذه العملية مرّة بعد عيد الفطر ومرّة بعد ستة أشهر: فتغسل بالماء والصابون السجاجيد، والأرضيات، والجدران، والسقف، ومصاريع النوافذ، وأغطية الأثاث، والمفارش. وكان يُؤتى بخمس نساء أو ست ليساعدن في هذه المهمة الواسعة التي تتكرّر طقوسها كل نصف عام. وأمّا لدى الطبقة الفقيرة فتعاون نساء الأهل والمعارف والجيران في عملية تنظيف مماثلة تجري في كل البيوت. وفي شقق دمشق الحديثة توجد بالوعة في زاوية كل غرفة لصرف الماء الذي تسفحه النساء المسلمات بالسطول

على بلاط الغرف. وكان من عادة جدّتي لوالدي، التي جعلت من عملية التنظيف الشاملة مهمة يومية، أن تغسل بالماء حتى أوراق شجر الليمون في باحة دارها بدمشق القديمة. وكان جدّي، حين تكفّهر السماء، يعترض على ما تقوم به ويقول لها إنه لا معنى للتنظيف ولسفح الماء والمطر على وشك الهطول، فتردّ عليه قائلة: «حاشا لله أن يهطل المطر على أرض غير نظيفة».

ويُعزى هاجس الاغتسال لدى المسلمين إلى توقيهم لله تعالى على أساس أنه عندما يُعنى المرء بجسده فإن ذلك يكون بمثابة شكر الخالق هذا الجسد. ويرى المسلمون أن الاغتسال، والترتيب، والنظافة تقضي على الفوضى التي هي عندهم من عمل الشيطان. ولا شك أن كون أكثر المسلمين يعيشون في بلدان حارّة، ومزدحمة، وقاحلة، جعلهم يثمنون البيوت النظيفة ذات المناخ المعتدل ويعتبرون أن الماء هو أعلى ما عندهم وأن للناس جميعاً حقاً فيه. ففي دمشق مثلاً يمكن أن تكون موضع ترحيب في أي دكان لو طلبت استعمال ماء صنوبره وتوجّهت نحوه لتشرب وتغسل يديك على هواك. وعلى نمط سبيل الماء العام المنتشر في الأحياء القديمة، يبرز في مدخل كل بناء حديث صنوبر ليكون ماؤه في متناول الجميع ودونما استئذان (وفي الحديث الشريف «المسلمون شركاء في ثلاثة: في الماء، والكلاء، والنار»). وهذا نوع من السلوك لا يعرفه الغرب. فذات يوم كانت أمّي تجوب في أحد شوارع باريس وقد تلوّثت يدها بحلوى دبقة، وعندما لمحت حداًثياً يروي النباتات تقدّمت منه لتغسل أطراف أصابعها تحت الماء المنهمر من خرطومه، فما كان منه إلا أن قال لها بحدّة: «لا يا سيدتي. إن هذا الماء يخصّ المالك وحده!».

إن البيت المثالي عند المسلمين هو الذي تكون فيه فسحة سماوية تتوسطها بركة يتفرق الماء من نافورتها، وهو النمط الذي نُقل إلى الأندلس ويتجلى مثاله اليوم في قصر الحمراء بغرناطة. وكان المسلمون الأندلسيون يقولون إن ثمة موسيقى تنسكب من صوت الماء المتدفق، ومن ضحكة المحبوب، ومن رنين النقود، فليس في الإسلام جناح على امتلاك المال، والقرآن يقول: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا». ويختلف مفهوم هذه الآية بشكل بين ما ورد في كتاب «العهد الجديد» من تشويه لصورة أغنياء هذه الدنيا وسمعتهم. فالسلوكيات الإسلامية تقضي بأن ينفق الغني ماله في التصدق على الفقراء، وإقامة مؤسسات التعليم والثقافة، وبناء المساجد، والحج إلى مكة، ومتى فعل المسلم كل هذا الذي يرضي الله فإنه لا إثم عليه إذا أمتع نفسه بفضلة ماله.

وتقضي النصوص الدينية بأن النظافة تلي مباشرة مرتبة القداسة، وأنه لا يجوز لمراء أن يصلّي أو يمسّ القرآن إلا إذا كان طاهر الجسد. وعندما كنت أهتم بالسفر إلى إنكلترا أبدت جدتي قلقها حين قالت: «لقد سمعت أن أفراد الأسرة في بريطانيا يتوالون جميعاً على استعمال مياه مغطس الحمام نفسها، وأنهم لا يتنظفون». فالمسلمون يرون في التنظيف وشطف الأوساخ الوسيلة الوحيدة للطهارة الحقيقية.

يتعلّم الأطفال المسلمون في سن مبكرة أهمية غسل المناطق الحميمة من أبدانهم بالماء والصابون كلما استعملوا المرحاض، في حين لا يتوفّر دائماً ما يؤمن لهم ذلك في الحمامات الأوروبية. وقد حدث ذات يوم أن تلقت أختي المقيمة في نيويورك هاتفاً من جارتها الأميركية التي حيّرها كيف أن ابن أختي البالغ من العمر ثلاث

سنوات، وكان عند تلك الجارة يلعب مع أولادها، يرفض أن يترك
المرحاض مالم تغسل له مقعدته بالماء والصابون لأن أوراق (التواليت)
وحدها لا ترضيه.

وقد يبدو للغربيين أن هذا القدر من الرهافة هو وقف على الطبقة
المتوسطة، ولكن نظام الطهارة الشخصية إنما يلتزم به كل من يقدر
على استعمال الماء أو يمكنه الوصول إليه. وإلى جانب كل مسجد
يكون هناك حمام أو على الأقل نافورة في الفناء يتوضأ المسلمون
بمائها. وهكذا يرى المرء منظرًا شائعاً ومألوفاً في أرجاء العالم
الإسلامي حيث يبدو الرجال وهم ينضحون وجوههم بالماء قبل
الشروع في صلاتهم. فالإسلام وضع طقوساً صارمة للوضوء قبل
الصلاة: فالماء يجب أن يمرّر على الوجه والرقبة والأذنين واليدين
والمرفقين والقدمين، وبالطبع يجب أن تغسل به قبل كل شيء
الأجزاء الحميمة من البدن. ويتعيّن ممارسة الوضوء قبل أول صلاة من
الصلوات الخمس، ويجب إعادته قبل كل صلاة إذا اتسخ المرء أثناء
العمل أو إذا دخل إلى المرحاض أو أخرج ريحاً. أمّا إذا مارس الجنس
فيتحتّم عليه الاغتسال.

إن الاغتسال بعد ممارسة الجنس هو أمر أساسي يجب أن يقوم به
الرجال والنساء جميعاً. وتعتبر فترة حيض المرأة فترة غير طاهرة تحول بين
المرأة وبين أن تصلي أو تصوم أو تقرأ القرآن أو تدخل مسجداً. وحين
ينتهي محيضها تغتسل المرأة اغتسالا جيّداً لتطهّر. وأمّا الصبيان فيجري
ختانهم لأن القلفة تعتبر بؤرة لتجمّع الأقدار.

إن كل عادات النظافة والطهارة هذه أصبحت على مرّ السنين
أسلوب حياة. ويكمن وراء كل هذا التطهّر والنظافة التشبّه بالرسول

ﷺ الذي كان نظيفاً، زكيّ الرائحة، متكامل الهمام عليّ بساطته. بل إنه كان، حرصاً على مراعاة المسلم لإخوانه، يوصي بالألا يدخل أحد المسجد إذا كان قد أكل من فوره ثوماً أو بصلاً كي لا تثقل عليهم رائحته، وكان يقول: «الطهور شرط الإيمان».

ولا أعتقد أن هاجس المسلم بالنظافة يتّسم بالقمع أو أنه يهدف إلى إثارة الافتتان مع أنه قد يبدو كذلك لغربيين. إلا أنه يمكن القول، من جهة أخرى، إن التمسك بأهداب النظافة قد يتحوّل أحياناً إلى نوع من التوجّس حيال الآخرين. فقد تناهى إلى سمعي ذات مرّة وأنا لدى مصفّفة الشعر بدمشق صوت سيّدة مسلمة مترمّمة تقول لصاحبة المحل: «حبّذا لو تتخلّصين من تلك الفتاة الأجنبية التي غسلت لي شعري في المرّة الماضية، لأنني متيقّنة أن يديها لم تكونا نظيفتين...». ويعكس هذا الكلام اعتقاد بعض المسلمين بأن المسيحيين لا يغتسلون كما ينبغي.

وبالطبع فإن هذا التحامل يأتي من كلا الطرفين: فالمسيحيون مقتنعون أيضاً بأن المسلمين هم الوسخون. لقد كان جدّي توفيق قباني أحد الذين ناضلوا ضد الفرنسيين خلال فترة انتدابهم على سوريا فأودعوه السجن. ومع ذلك فإنه كان معجباً بحضارتهم حتى إنه أرسل والذي ليتابع دراسة الحقوق في جامعة السوربون، وبذلك كان جدّي قادراً على أن يفصل ما بين فرنسا/ السياسة التي اضطهدته وبين فرنسا/ الحضارة التي أعجب بها، وهو فصل لا نقوى اليوم على ممارسته بعد أن اتضح لنا عمق التداخل المريب بين القوة والثقافة. والدي من الشغوفين بالنظافة وينحدر من سلالة يسكنها هاجس النظافة والاعتسال. وحين هبط باريس طلباً للعلم، وهو يلبس قميصاً

منشى ناصع البياض ويحمل في صندوقه مؤونة عام كامل من صابون الغار الحلبي، أمضى ليلته الأولى في فندق قميء في أحد أحياء الضفة اليسرى من نهر السين. ولما كان قد أعياه السفر البحري الطويل فقد جلس يستريح في البهو القذر، ثم مال بث أن غفا قليلاً ومال برأسه على جدار البهو، ولكن سرعان ما هبّ مذعوراً على صوت البوّاب الفرنسي ذي الرائحة المقرّزة وهو يصيح به: «إبعد رأسك يا هذا عن جداري، فإنك ستوسخه!».

هيا إلى الغرب !

تقطعت تنشئتي الإسلامية بعدد من الاقتحامات على الثقافة الغربية بسبب تقلب والدي في مناصب دبلوماسية في الخارج. وقد جابهت خلال هذه السفرات قيماً لم يكن لديّ قدرة ولا رغبة في التكيف معها، الأمر الذي جعلني أحسّ منذ سنّ مبكرة بأنه يتعيّن عليّ أن أنهج نوعين من الحياة: حياة في البيت وأخرى في المدرسة. وكان التخالف بينهما هو أول ما تبيّنته، على مستوى مصغّر، من ملامح المجابهة الأوسع نطاقاً بين الإسلام والغرب.

فلأنني فتاة مسلمة مطوّقة بألوان من القيود لا تتيح لها مثلاً أن تذهب إلى الحفلات أو تعقد صداقات مع الفتيان، وجدتني أحسّ أنني دخيلة غريبة. وكما أحفظ منزلتي وأتفادى أن يُنظر إليّ من عل فقد انكسبت على دراستي وتفوّقت فيها، وكنت كلما انتهيت إليّ نبأ جائزة ما أشعر أنها يجب أن تكون من نصيبي، وغالباً ما كنت أفوز بها. وكان ذلك كله هو السبيل الذي التمسته لأتغلّب على الإحساس بأني مختلفة عن الآخرين. وفي وقت لاحق، وأثناء دراستي الجامعية في أميركا، وجدت أن الطلّاب الذين يفوزون بأعلى الدرجات هم أيضاً من الأجانب مثلي، فكنتنا نرانا خلال المحاضرات نجلس جميعاً في المقاعد الأمامية، يدفعنا الحافز نفسه للنجاح، والرغبة ذاتها في أن نبين لطلّاب البلد أننا بمثل مستواهم إن لم نكن نفضلهم.

كان أول اقتحام لي، وأنا في الخامسة من عمري، هو مدينة نيويورك. وأما أولى الصدمات التي تلقيتها فكانت عندما رأيتني وحيدة مع أبي وأمي اللذين لم يكونا قطّ محوراً لحياتي من قبل. فالذين كنت أقضي جلّ وقتي معهم كانوا: جدّتي، وفاطمة الطاهية، ومطبعة التي كانت تُعنى بي. ثم كانت هناك خالة والدتي المقيمة قربنا مع أولادها. وكنت أرتاد مدرسة في دمشق لا تبعد أكثر من شارع واحد عبر منزلنا، ولذلك كان بمقدوري أن ألمح من خلال نافذة صفّي جدّتي وهي على شرفنها تدخّن سيجارتها، أو تقلّم ورودها، بل حتى إن المستشفى الذي ولدتُ فيه كان ملاصقاً لمدرستي.

كانت نيويورك بالنسبة إليّ عزلة مبالغتة، ففيها عرفت لأول مرّة طعم العيش في أسرة صغيرة، ليس فيها سوى أبويّ وأنا، في قلب مدينة مجهولة. وأذكر أنه حين وصلت صناديق متاعنا إلى الشقّة التي سنقطنها في ساحة «ساتون»، رأيت أمّي تتجه نحو أحدها، وتجلس عليه، ثم تنخرط في البكاء. ولم يحدث قطّ أن رأيتها تبكي من قبل، فلا شكّ أنها عندما كانت تعيش محاطة بأسرة كبيرة كان يتسنى من يطبّب خاطرها قبل أن تصل إلى حافة الانهيار. لقد كانت حالتنا، هي وأنا، واحدة، فكما وجدت نفسي لأول مرّة وحدي مع أمّي، وجدت نفسها لأول مرّة بعيدة عن أمّها.

وحينما طغى شوقها إلى الوطن عمدتُ إلى جهاز التسجيل الجديد الذي اشتراه أبي لها، وأدارت عليه أغنية عربية. وكان صوت الموسيقى عالياً، وسرعان ما سمعنا طرقاتاً على الباب، وظهرت من ورائه جارة لنا، وبينما هرعت أمّي لتخفيض الصوت سألت الجارة: «أوليست هذه أم كلثوم؟» وفهمنا أنها كانت تعيش في لبنان، فاستعرفت الموسيقى،

وأقبلت لتعقد صداقة معنا. وهكذا، وبضربة الحظ هذه، أضحت عزلتنا في تلك المدينة الغريبة الكبيرة أمراً يمكن تحمّله، ولاسيما أن جارتنا كان لها ابنة تماثلني في العمر.

وعندما التحقت بالمدرسة اكتشفت باندهاش أن ملامح الكثيرات من بنات صفّي شبيهة بلامح رفيقاتي في سوريا، لذلك لم تلبث هؤلاء البنات أن أصبحن صديقات لي. ولما كنت لا أعرف إلاّ اليسير من اللغة الإنكليزية فقد كان التحاور معهن محدود النطاق، ولكن عندما ذهبت إلي قاعة الطعام لتناول الغداء وجدت أنهنّ مثلي لا يأكلن لحم الخنزير وأعطينا بدلاً منه قطعتين من الحلوى. وذات يوم دخلت المديرية صفّنا وألقت سؤالاً لم أتبّئّه. ولما رأيت صديقاتي يرفعن أيديهنّ رفعت يدي أسوة بهنّ، في حين أن المديرية كانت تسأل: «من هو يهودي في هذا الصف؟». ومثلما أضحك معلّمتي أن أجهل ما ديني، أضحكها أيضاً، عندما هممت بكتابة الإنكليزية، أن تجدني أكتبها مثل العربية من اليمين إلى اليسار.

درس مبكّر آخر تعلّمته عن مخاطر العيش في (مانهاتن). وأذكر أن والدي كان ذات يوم متجهّم الوجه حين فتح جريدة ليريني صورة فتاة صغيرة اعتُدي عليها في حديقة «سنترال بارك» (حيث كنت أصطحب للتنزّه فيها) ومن ثم طعنت في بطنها. كانت مثلي في السادسة من عمرها. وقال والدي «إنه بلد خطير هذا الذي نعيش فيه، ولهذا عليك أن تتوخّي الحذر ممّن تتكلّمين معهم وحيال المكان الذي فيه تلعبين». وبعد بضعة أيام عدت من المدرسة فوجدت أمّي، وقد انتابها ذعر شديد، تهتف إلى أبي في مكتبه لتخبره بأنها لم تعد تطيق البقاء في هذه المدينة، وأنها تُريد أن ترجع إلى الوطن. فقد قُتلت امرأة تسكن فوق

شقتنا بطابقين وذلك بعد أن أوصت على بعض الخُضْر من بقالية قرية، فجاء القاتل وادّعى أنه صبي البقال كي يجعلها تفتح الباب. وكان أكثر ما صدم أمي أن المرأة عندما صرخت واستغاثت لم يهرع لنجدتها أحد؛ كما أفقدها أعصابها أيضاً أن تعلم أن بعض المومسات اللواتي يمارسن الدعارة بواسطة الهاتف كنّ يدرن ماخوراً رفيع المستوى في الشقة الواقعة قرب سلم البناء الذي نقطن فيه. فكل هذا الذي مرّ عليها كان شديد الاختلاف عن العالم السّمح والرزين والمتماسك الذي اعتادته في دمشق.

وفي سنّ التاسعة كانت صديقتي الأثيرة هي غيلدا اليهودية التي لوّحتها شمس العطلات الرغيدة الباهظة التكاليف. كانت تعيش مع أمها المطلقة التي كانت غيلدا نسخة مصغرة عنها، وكان مظهرها يوحي للآخرين بأنهما ينتميان إلى مجتمع نيويورك اليهودي المترف. كانتا تقطنان بالقرب من عمارتنا في شقة عالية فخمة ذات تصميم داخلي قوامه تدرّجات اللون الأبيض. وعندما كنت أزور غيلدا في شقتها، كنت أجد أمها تتحدّث في الهاتف أو تجوب في أرجاء البيت، وقد ارتدت غلالة شفافة تُظهر أكثر ما تُخفي فأتيح لي أن أرى للمرأة الأولى ملامح جسد امرأة عارية. وكان رماد سيجارتها ذات المبسم الماسيّ الطويل يتناثر باستمرار على السجادة البيضاء. وأمّا في دمشق فكان هناك قدر أكبر من الاحتشام والتستر حتى فيما بين أفراد الأسرة الواحدة. ولعلّ ذلك يرجع إلى سكني أناس من أجيال مختلفة في البيت الواحد بالإضافة إلى الخدم، تماماً كما كان الأمر في البيت الفيكتوري، ولهذا لم تكن أمي مثلاً لتغادر غرفة نومها إلا وقد ارتدت ثوباً طويلاً. وأمّا أمّ غيلدا فكانت من نمط آخر إذ علمت أنها كانت

تنام وهي عارية مع الرجل الذي أصبح فيما بعد عمّ غيلدا بالزواج ومن ثم صار مسموحاً لغيلدا أن تدخل عليهما في غرفة نومهما، بل إن ثلاثتهم كانوا يغتسلون معاً في حمام واحد، وهو أمر لم أتمكن من فهمه أبداً.

شيء آخر كان يدهشني أيضاً في والدة غيلدا هو أنها كانت لا تفتأ تتغير مواضع الأثاث في بيتها بما في ذلك البيانو الأبيض الضخم الذي كان يتغير مكانه باستمرار في حين أن لاشيء في منزل جدّتي كان ينزاح من موضعه، وهي لم تعتمد إلى تغيير شيء في البيت منذ قطنته. كان لكل غرفة وظيفتها، وكانت كل قطعة أثاث راسية في مكانها الصحيح. وكان بهو الاستقبال لدى الطبقة الوسطى في دمشق ذا نمط واحد يتكرّر في كل البيوت: فالسجّادة العجمية تأخذ الحيز ذاته، وكذلك قطع الأثاث: كتلك المطعّمة بالصدف، والخزائن التي تحوي الأطباق الصينية، وبيضة النعام المزخرفة بآيات من القرآن، ومزهريات الأوبالين في الخزائن الخشبية ذات النقوش. وكان لا يسمح للأطفال بدخول هذا البهو إلا في مناسبات خاصّة ولا يُفتح إلا لاستقبال الزوّار فيه. وهكذا لم تكن موجودة عادة استعمال الأسرة للبهو ولإعادة تبديل مواقع الأثاث لمجرّد التسلية. ولم يكن الأثاث يتحرّك من مكانه إلا في فترة التنظيف نصف السنوية ومن ثم يُعاد إلى حيث كان. وكنتنا نقلد جدّتي ضاحكات عندما كانت تشكو الخادِمات الجديّدات اللواتي «لا يعرفن كيف يُعدن الأشياء إلى مواضعها».

في نيويورك، كان أغلب ذوي صديقاتي مطلّقين أو أنهم في الطريق إلى الطلاق. وحين كانت غيلدا تأتي لتلعب معي في منزلنا كان الذي يحضر لاصطحابها في بعض الأحيان عشيق أمّها، وكان ذلك مدعاة

لامتعاض أمي وأبي ودهشتهما لأنهما لم يعرفا أمراً من هذا القبيل، فهما قادمان من مجتمع لم يألّف ذلك.

كان لغيلدا أثر كبير في معرفتي بالغرب. وذات يوم بينما كنتُ نهبط معاً في مصعد عمارتها، رفعت تتورتها إلى أعلى ونزعت سروالها التحتي الساتر لعورتها لترهبها للبوّاب الإيطالي ذي البزة الرسمية الذي لم يصدّق ما رأى وقال بامتعاض: «ما كان يجب أن تفعلي ذلك يا بنيّة»، فما كان منها إلا أن مدّت له لسانها وهرعت خارج المصعد وهي تلوح بسروالها وتضحّ بالضحك.

بدأ أمر الجنس يشغلني في أندونيسيا حيث عُيّن والدي عام 1969 وعشت فيها من سنّ الحادية عشرة حتى الرابعة عشرة والتحقت بمدرسة أميركية في جاكارتا. ويبدو أن المناخ الإستوائي الحار والرطب كان يطلق عنان الرغبات الجنسيّة لدى المراهقين في المدرسة الذين لم تكن تضبطهم وبشكل رخص سوى شلّة من معلّمين غربيين لا تعدو أن تكون مجموعة متنافرة من ذوي الأطوار الغريبة الذين مسّتهم هيجانات ستينيات القرن العشرين، وكان يبدو أنهم قدموا إلى هذه المناطق بدوافع «كونرادية»^(٥).

وكنا، أنا وطالبة أخرى، محظوراً علينا أن نشارك في الهرج والمرج. فبالنسبة لي لم يكن مسموحاً، لأسباب دينية، أن أواعد الفتيان، أو أن أجلس معهم في مقاعد السيّارة الخلفية، أو أن أذهب إلى حلقات اللهو المختلطة. كذلك كان حال رفيقتي (ماجدا) القادمة من وراسو وابنة أحد دبلوماسي السفارة البولونية، التي لم يكن يسمح لها، لأسباب سياسية،

(٥) نسبة إلى الروائي جوزيف كونراد (1857 - 1924) الذي اتخذ من عالم البحر والمغامرات في مناطق النائية موضوعاً لكثير من رواياته (المترجم).

أن تخالط الأميركيين. ثم كانت هناك فتاة أخرى هي (سندي) التي كان يتعيّن عليها، بسبب انتمائها لطائفة المورمون، أن تكون مثلنا فلا تشارك في ألوان اللهوتلك، ولكنها كانت تنخرط فيها دون علم أبويها، ومن ثم أصبحت نجمة لعبة «تدوير الزجاجاة» التي لم تكن سوى ذريعة واهية لتبادل العناق والقبلات.

كان المأزق الذي وقعت فيه يتمثل في أنني فتاة ذات نشأة صارمة وجدت نفسها في جو مدرسي متساهل، وهو المأزق الذي تجد فيه أيضاً أعداد لا تحصى من الفتيات الآسيويات اللواتي اقتلعت أسرهنّ من أوطانها لأسباب سياسية أو لضرورات اقتصادية وجاءت لتقطن في الغرب. وغالباً ما تثور تلك الفتيات في وجه القيود بصورة أكثر عنفاً من ثورتي في أيامي الخوالي. لقد كان هناك مثلاً مسألة التربية البدنية التي هي برمتها محل أخذ وردّ، لأنها تعني، بالإضافة إلى الركنز والقفز، وجوب ارتداء البنطلونات المتناهية في القصر. ولكن إبان طفولتي لم تكن الفتيات المهذبات يمارسن الركنز، وأذكر أنني عندما كنت في العاشرة بدمشق لمحت معلّمتي عبر الطريق فاندفعت نحوها لأحييها فما كان منها إلا أن صدّنتني بعبارة تويخ قاسية حين قالت: «أفلا تخجلين من أن تركضي في الشارع؟». هذا عن الركنز فما بالك بأن تبدي الفتاة فخذيها للعيان؟ وفي إندونيسيا، لم تكن أمي سعيدة أبداً عندما ارتديت البنطلون المتناهي في القصر الذي يتعيّن ارتداؤه في المباريات، وكانت النتيجة، في نهاية المطاف، أنني تخلّيت عن رياضات التربية البدنية برمتها وانضويت بين جدران المكتبة. وقد أراحني هذا القرار وأرضاني لأنني لم أكن أحبّ أن أخلع ثيابي على مرأى من الفتيات الأخريات بعد أن برزت معالم أنوثة جسدي في سنّ الثانية عشرة،

بالإضافة إلى أنني كنت لأزال أشعر بوخز حادثة وقعت لي في بداية تلك السنة: كانت الفتيات يومها يقمن بخلع ثيابهنّ عندما صرختُ إحداهنّ قائلة: «انظروا ماذا هناك» واستدارت كل العيون نحوي. كان قد عُلق على صدريتي مغلّف بلاستيكي شفاف صغير يحتوي على ورقة مغطّاة بكتابة عربية. وتصاعدت الاستفسارات: «هيا، هيا، قولي لنا ما هذا؟» لقد كان شيئاً ليس بوسعي تفسيره. فأُمّي مثل الكثيرات من النساء العربيات كانت قد ذهبت إلى أحد المشايخ قبل أن تغادر دمشق ليهيئ لي حرزاً يحميني من الأذى. وكتب رجل الدين بضع آيات قرآنية على قطعة ورق ومن ثم طوتها أمّي بعناية ووضعتها، من أجل حمايتها، ضمن المغلّف البلاستيكي. وكان قد مضى زمن طويل والحرز معلق في ثيابي الداخلية حتى إنني نسيت أمره. وأخيراً قلت للفتيات كي أوقف إلخافهن وإمطاري بالأسئلة: «إنها رسالة من صديقي في سوريا». ولا أزال أحمرّ خجلاً كلما تذكّرت تلك الأكذوبة.

كان الطلاب في منتصف النهار يفتحون سلال طعامهم المحمول معهم من منازلهم، وهو يتألّف عادة من لحم الدجاج، وسندويشات زبدة الفستق، وما شابه. وما أكثر ما كنت أدهش حين أسمع أحدهم يصيح متأفقاً: «أف! لشدّ ما أكره هذا اللون من الطعام»، ومن ثم يعمد إلى صندوق القمامة ليفرغ ما في سلّته من طعام. وكنت أصرخ في سرّي: «حرام! حرام!»، فقد تعلّمت أن رمي الطعام إثم، ولم أكن أناقش ذلك أبداً.

في تلك السنة اختارتني مدرّسة الموسيقى الآنسة (موري)، وهي ابنة رجل دين من ولاية (كانزاس)، لأكون نجمة المسرحية الغنائية «رجل الموسيقى». ويتضمّن المشهد الأخير حواراً غنائياً تؤدّيه البطلة مع حبيبها

البائع المتجول وينتهي بتبادل قبلة. وهذا ما أثار الاستهجان في البيت وجلب لي التوبيخ. فقد رفض والدي قيامي بذلك وقال: «نحن مسلمون، ومثل هذه الأشياء غير مسموح بها على الإطلاق». وهكذا حلّت محلّي بديلتي الأميركية وأخذت الدور. وكان من السخرية بمكان أنّ والدي حين شهد معنا الحفلة المدرسية استمتع بالمرحبة أيما استمتاع، ولعلّه ندم على قراره رغم أنه لم يعترف بذلك قطّ.

والأساس في كل هذه الأمور هو أنه لم يكن مسموحاً لي بإقامة أي اتصال مع الفتيان، وعندما جرؤ أحد هؤلاء وكلمني بالهاتف تلا ذلك مجادلات في المنزل استمرّت عدة أيام. وأمّا الاستثناءان الوحيدان اللذان تسامح أبواي بهما فهما فتى مصري يعرفون أسرته وآخر ماليزي وهو ابن سفير ماليزيا، وكلاهما مسلمان. ولم يكن قرار أبويّ نابغاً من تعصّب أو كراهية للأجانب وإنما كانا يفترضان أن نشأة هذين الفتيين مماثلة لنشأتي ولذلك فهما لن يحاولا ارتكاب أية حماقة.

وذات يوم جاء الفتى الماليزي في سيّارة السفارة التي يقودها السائق، ليصطحبني إلى حفلة تقيمها الآنسة (موري) التي كانت قد تزوّجت حديثاً من الأستاذ (بريدجز) الذي يعلّمنا الإنكليزية. ولكن ما إن لمحتني أمّي أجلس إلى جانب الفتى على مقعد السيّارة الخلفي حتى هرعت إلى خارج البيت ونقرت على نافذة السيّارة وطلبت من الفتى، زيادة في الحيلة، أن ينتقل إلى المقعد الأمامي بالقرب من السائق، فطاوعها في طلبها دونما اعتراض.

ولم ندر أنّنا سنكون الضيفين الوحيدين، ولا أن الأستاذ (بريدجز)، وهو بريطاني من مقاطعة (كنت) ويحبّ تدريس شكسبير، كان قد اعتنق الإسلام وأنه أقنع الآنسة (موري) بأن تحذو حذوه. والواقع أنّنا قد

دُعينا، أنا والفتى الماليزي، لكوننا مسلمين وفي مناسبة إسلامية هي حلول عيد الفطر. وكنت أرتدي تنورة متناهية في القصر من أجل الحفلة، غير أنني اكتشفت أن الآنسة (موري) تبدو مسلمة أكثر مني بردائها المحتشم الذي طال إلى كاحليها!

كانت المرحلة الأندونيسية بكاملها، وكذلك تجربة نيويورك، بمثابة فترة تعليم لأبويّ ولي على حدّ سواء. فقد كان أبي وأمّي يدركان أنني محشورة بين ما علماني من قيم وبين نوع الحياة التي كانت تحيط بي في المدرسة، وكان الانتقال من عالم الإسلام إلى عالم الغرب صعباً أيضاً بالنسبة لهما. وعندما بلغت أختي، التي تصغرني بخمس سنوات، سن المراهقة كانا قد أمضيا وقتاً طويلاً في الخارج، فأصبحا أكثر صقلًا وأقلّ تشدداً وتحفظاً.

لقد تبيّنتُ شيئاً فشيئاً أن المنهاج المدرسي مصمّم بشكل لم يسعني قبوله مثلما لم يسعني قبول سلوكيات أقراني الجنسية. فالجغرافيا كانت تُدرّس من منطلق مفهوم «الاكتشاف»: اكتشاف الغرب لأفريقيا أو آسيا أو الأمريكيتين ومن منطلق الصورة البطولية المسبغة على (كولومبوس). وعندما عرفتُ رفيقتي الهولندية التي كانت تجلس إلى جانبي بعد قراءة خريطتها أين تقع سوريا، استدارت نحوي وقالت بذعر حقيقي: «أنت إذن من آسيا!».

وعلى الرغم من أن أندونيسيا هي بلد إسلامي، وجزء من العالم الثالث، فإننا كنّا نلقن تاريخ الرجل الأبيض وحروبه الأميركية والأوروبية، وثوراته، وانتصاراته. وأمّا ما تبقى من العالم فكان إمّا محل تجاهل أو كان يُرى من خلال منظار التفوق الغربي. وكانت الشيوعية هي بعبع الصف، وهذا ما كان الطلاب أنفسهم يرونه إذ إن أكثرهم

كانوا أولاد دبلوماسيين أميركيين أو أولاد حرّاس البحرية الأميركية. وأمّا أنا فأتية من سوريا البلد المسلم الذي تربطه صلات وثيقة بالاتحاد السوفياتي. وحين طُلب منّا أن نكتب تقريراً عن بلد ما نختاره نحن، جعلتُ تقريرِي عن روسيا فانزعجت معلّمتي لأنني لم أصوّرُها بلداً شريراً.

أمّا إسرائيل فكانت هي الأثيرة، وكان يُقال لنا إن علينا أن نعجب بنجاح الصهيونية في قهر الصحراء الجرداء. وعندما رفعت يدي لأقول إن الفلسطينيين فعلوا ذلك أولاً ثم جرى طردهم من الحقول التي زرعوها، انتاب معلّمتي غضب شديد وقالت بنبرة عالية: «يتعيّن عليكم، أنتم العرب، أن تنسوا ذلك، فالبلاد الراححة لها أن تحتفظ بما ربحت!» كان هناك جانب واحد لكل قضية، ولم يكن ذلك هو الجانب الذي كنت فيه.

ومع أنني كنت أبدو متمردة في إطار الجو الغربي لمدرستي في جاكارتا فقد اكتشفت لدى عودتي إلى سوريا عام 1973 أنني تأثرت بذلك الجو أكثر ممّا قدّرت.

كنت قد بلغت الخامسة عشرة، وحُشرت فور عودتنا إلى الوطن في زِي عسكري، إذ كانت سوريا على وشك الدخول في حرب مع إسرائيل. وألزمْتُ بتدريب عسكري صارم يتضمّن فيما يتضمّن كيفية فكّ بندقية «كلاشينكوف» وتركيبها، والرمي بها. وعندما كنت أسير خلال التمارين بالحذاء العسكري الثقيل لساعات وساعات، كنت أجد المبرّر لأحنّ إلى أيام الحفاء في أندونيسيا. وكانت مدرّباتي، وهنّ من الحزبيات المتشدّدات، يرين فيّ صورة لبورجوازية ناعمة مُصابة بلوثة الغرب وتقف في الجانب السياسي الخطأ، فقرّرن أن يخصصنني بعاملة

خشنة قاسية، إذ كانت رسالتهن العقائدية تهدف إلى تكوين «امرأة سورية جديدة»، وهكذا وقع اختيارهنّ عليّ ليجعلن منّي مثلاً لما يصنعن.

كانت مدرّبتي تصرخ من وقت لآخر في مكبّر الصوت: «قباني! أسرعي فوراً إلى المغسلة وبلّلي شعرك». فهي قد قرّرت أن شعري القصير المجعّد «ليس طبيعياً» بل إن مصفّف الشعر هو الذي جعله على تلك الصورة، وأنه لا بدّ بالتالي من إزالة هذا التجعيد تمشياً مع الانضباط العسكري. وكنت أترك واقفة بوضعية الاستعداد في وسط أرض التدريبات والماء يتقاطر على عنقي بانتظار أن يجفّ شعري. ولكن التجعيدات المتمرّدة كانت لا تلبث أن تعود إلى حالتها الأولى، ومن ثم كان لا بدّ أن ألقى في اليوم التالي عملية الإذلال ذاتها. وشيئاً فشيئاً تلاشت منّي كل آثار الحياة الرخيّة في أندونيسيا، بل سرعان ما ألصقت عليّ بزّي العسكرية شريطة حمراء تشير إلى أن الضحيّة صارت الجلّادة: فقد أصبحت مساعدة للمدرّبة وكانت مهمتي هي التفتيش على الفتيات والتأكد من أن أظافرهنّ مقلّمة، ونظيفة، وخالية من الطلاء، وأن وجوههنّ لا تغطّيها مساحيق التجميل وأن ليس بينهنّ من تمضغ اللبان.

ولكن اللعب ما عتم أن أصبح جدّاً عندما قامت سوريا ومصر في 6 تشرين الأول (أكتوبر) 1973 بهجوم على إسرائيل لتسترجعا منها الأراضي التي اغتصبتها في عدوان عام 1967، وخلال الحرب كان جميع سكّان عمارتنا يهرعون إلى القبو ليحتموا من الغارات الجوية الإسرائيلية على دمشق وكان قوامها طائرات الفانتوم الأميركية الصنع التي راحت تنقضّ على ارتفاع منخفض فوق شارعنا وتقصف الأبنية.

وفي إحدى الغارات محت بقنابلها ثلاث عمارات سكنية كانت تقوم في آخر الشارع وتسيّبت في قتل عدد هائل من المدنيين.

ولم تكد تنقضي أسابيع قليلة على اندلاع الحرب حتى انقلبت الحماسة في سوريا إلى اكتئاب. فقد نشبت بين دمشق والقاهرة خلافات كانت إيذاناً مبكراً لانحراف السادات اللاحق ولتوقيعه اتفاقيات كامب ديفيد. وشرع هنري كيسنجر في عملية تفريق العرب وحماية إسرائيل، وهي عملية لم تكن بعد واضحة للعيان، فقد مؤه سياسته تلك بمبادرة ودية لإعادة العلاقات الدبلوماسية بين سوريا وأميركا التي كانت قد قطعت عام 1967. واختير والدي، وهو دبلوماسي محترف، ليكون أول سفير لسوريا في واشنطن. وهكذا حزمنا حقائبنا من جديد للقيام باقتحام آخر للعالم الغربي.

وجاء السفر الجديد في وقت فاصل بالنسبة إليّ. ففي عام 1974 كنت قد بلغت السادسة عشرة، وحصلت على الشهادة الثانوية، وغدت مدرجة على قائمة الزواج. وبين يوم وآخر كانت أمي تتلقّى هاتفاً من أمّ رغبة في تزويج ابنها مني وتطلب أن تأتي لتزورنا وتراني. وأصبح لديّ عدد كبير من أولئك الراغبين الذين كنت أعرف بعضهم، وأمّا الآخرون فكانوا بالنسبة إليّ مجرد أسماء. وكنت في الحقيقة مزهوّة بذلك مثلما تزهو أي فتاة غريبة حين يكون لديها الكثيرون ممن يواعدونها. ولو أننا بقينا في سوريا لكنت اخترت أحد هؤلاء، ورسوت في مؤسسة زواج مرتّب ومريح على الطريقة الشرقية. وبدلاً من هذا كله فقد أخذت بعيداً إلى سكن سفير في واشنطن، وإلى بيئة أشدّ خطراً هي بيئة جامعة (جورجتاون).

حيال واشنطن أحسست بتناقض بيني: ففي عاصمة أميركا تعلّمت

أن أمقت أميركا. في واشنطن كُنّا نرانا، أنا وأسرتي، مطوّقين بعداء عميق نحو العرب بعامة ونحو السوريين بخاصة. ومرّد ذلك كان بلا شك تسلّط إسرائيل وهيمنتها على الفكر الأميركي. ووضح لنا أن الشرق الأوسط لا يُرى في أميركا إلّا من خلال أساطير الدعاية الإسرائيلية التي تروّج أن إسرائيل هي الضعيفة وأن العرب هم الأقوياء، وأن إسرائيل معرّضة لخطر الإبادة الدائم وأنها ترغب في السلام ولكن العرب يرفضونه، وأن تاريخها هو تاريخ عدالة واستيطان بطولي في الصحراء الجرداء، وأنه لا وجود لشيء اسمه فلسطين أو فلسطينيون. ولم يكن لدى الأميركيين ذرّة إدراك بأن العرب هم الذين حُوصروا، وهم الذين قُصفوا وأخرجوا من ديارهم بالقوة الإسرائيلية العاتية المزوّدة بدعم الولايات المتحدة ومساندتها.

ولم يكن من اليسير علينا أن نعيش في بيئة صنعناها أضرابا عدونا. فكل عربي يعتقد أن السياسة الأميركية حيال الشرق الأوسط إنما تُصاغ في تل أبيب، ولكن عندما يكتشف المرء أن هذا الاعتقاد هو الحقيقة بعينها وليس مجرد توهم، فإنه يُصاب بالصدمة الكبرى. ويمكن أن يدرك الغربيون ما يجيش في صدور العرب من خوف وغضب إذا ما تبين لهم أن القوة الأعظم في العالم هي التي تزدرى تطلعاتهم. فالنظرة التي تغلغت في النفسية الأميركية هي أن العرب (أو الإيرانيين) لا يملكون أبداً الحق في أن يدافعوا عن أنفسهم، ولذلك كان من المستهجن أنهم تجرّأوا وردّوا على العدوان الغربي باستعمال «سلاح النفط»، وبال هجوم على رجال البحرية الأميركيين، وبأخذ الرهائن. وأذكر أن وزير الخارجية الأميركية (شولتز)، في فترة لاحقة، خبط على المائدة بقبضة يده خلال أحد مؤتمراته الصحفية وأعلن أنه ما من سبب في هذا

العالم يبرّر الاعتداء على حياة الأميركيين. وإذا سلّمنا بأن القوة تخلق الحق وأن للقوي أن يتناسى التاريخ، فإنه لا بدّ أن نسأل: ماذا بشأن حياة العرب والإيرانيين، والأميركيين السود، وقد كانوا جميعاً ودونما استثناء يرون العالم من منظار المقهورين. كئناً نمضي الساعات الطوال في المناقشات، وتبيّن لي أننا كلنا نواجه مآزق متشابهة بصرف النظر عن اختلاف مشاربنا الاجتماعية والثقافية. وبالطبع، كان هناك دائماً بيننا أقلية من أبناء العالم الثالث التواقين إلى اصطناع نمط الحياة الأميركية والدوبان فيها. وكان هؤلاء ينظرون إلينا باحتقار لأننا «راديكاليون»، كما كئناً نحن بدورنا نحتقرهم بالمقدار نفسه.

إنه ليس من المستغرب أن التنشئة الإسلامية تحوي فيما تحوي جرعة قوية من العدا للغرب بسبب أن هذا الغرب يجهل حقيقة الإسلام ويزدرية، ولذلك لم أندش كثيراً حين سألتني أحد طلاب الدراسات العليا في جامعة جورجتاون «كم زوجة لدى أليك؟ وهل تعيشون في عمارة أم تحت خيمة؟ وهل تنتقلون بسيارة أم على ظهر جمل؟». لقد عاني العرب، بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، من ثقل الظلّ اليومي للاستعمار الأوروبي ومن الإذلال الذي مسهم منه، وحين أفل السلطان الأوروبي بعد الحرب العالمية الثانية حلّت محلّه الهيمنة الأميركية - الإسرائيلية التي يثور العرب في وجهها حتى يومنا هذا.

وبينما كنت ذات يوم أنقّب في صندوق عتيق بمنزل جدّتي لأمي وقعت على بيان وطني يعود إلى أواخر العشرينات وقد جاء فيه:

«يا رجال الوطن!

«نساءؤكم تدعوكم إلى حمل السلاح لتذودوا عن بيوتكم وعن

شرفكم،

«تقدّموا وجاهدوا وإلّا فإنّ العدو سيقضي عليكم وعلى آخر أمل لكم في الحياة الحرّة،

«لسنا نساءكم إذا لم تبدلوا حياتكم في سبيل هذا الوطن مثلما فعل أبائكم وأجدادكم من قبل،

«إنّ أمتكم ستكون وراءكم وستمدّكم بالقوة والعزيمة وستدعو لكم بالنصر المبين»⁽¹⁰⁾.

وكانت مناسبة هذا البيان الحماسي الذي وقّعته جدّتي هي اعتداء ثلاثة ضبّاط فرنسيين مخمورين على مؤذّن في حي الشاغور بدمشق. فقد أكرهوه عنوة تحت تهديد السلاح على قطع الأذان الذي كان يؤدّيه وعلى النزول من المئذنة⁽¹¹⁾. وسرعان ما التهبت مشاعر المدينة، وتنادى التجّار في الأسواق إلى إضراب فوري وأنزلوا أغلاق محلاتهم الحديدية، وكان هذا هو الأسلوب التقليدي للتعبير عن الاحتجاج⁽¹²⁾. وعندما أحسّت جدّتي بالغضب يغلي في صدور ضيوفها يوم «استقبالها» الدوري، طلبت ورقة وقلماً، وراحت تكتب بمساعدة خالتها، وهي سيدة فذة تدير جمعية الهلال الأحمر الخيرية، ذلك النداء إلى حمل السلاح، ومن ثم قرأته على الحاضرات، وقامت اللواتي يحسّن الكتابة منهنّ بإعداد نسخ عنه، وقمن بالصاقها على الجدران وهنّ في طريق العودة إلى بيوتهنّ.

(10) وثائق أسرة الغزّي (بدون تاريخ)، حوالي 1929.

(11) سرد هذه القصة الكاتب السوري الدكتور عبد السلام العجيلي في مجلّة «الناقد»، عدد 1/1/1989.

(12) فيليب خوري، «سوريا والانتداب الفرنسي: سياسة الوطنية العربية، ما بين 1920 و 1945»، منشورات (توريس)، لندن، 1987.

وهكذا، وبسبب مثل تلك الأحداث، انخرطت النساء في مضمار الحركة الوطنية، وغالباً ما كان يُعتقل أبناؤهنّ وأزواجهنّ بتهمة إثارة الشغب ويودعون في السجون. وكانت النساء يقمن على مدى أيام بإعداد الطعام وحمله إلى المعتقلين. وكثيراً ما كان الجنود السنغاليون الذين أتى بهم الفرنسيون لحفظ النظام ولإثارة الذعر، يعمدون إلى قلب أوعية الطعام النحاسية ثم يدوسون الطعام بأقدامهم. وقد أيقظ هذا النوع من الإضطهاد في نفوس المسلمين فكرة «الجهاد» التي تحضُّ على شنّ حرب مقدّسة على الغزاة. ولم يحدث، منذ ذلك الحين، ما من شأنه أن يغيّر ما بنفوس المسلمين حيال الغرب.

ولنسأل: أوليس الضمير الغربي ضميراً انتقائياً؟ إن الغرب يعطف على المجاهدين الأفغان الذين تساندتهم المخابرات الأميركية، ولكن هذا الغرب لا يكتف أي عطف نحو المسلمين المناضلين الذين لا يحاربون معارك حربه الباردة لأنهم منصرفون إلى اهتماماتهم السياسية الذاتية. وبينما أكتب هذه السطور يقضي الفلسطينيون نحبهم كل يوم في الأراضي المحتلة (ويدلّ آخر إحصاء على أن ألفي فلسطيني قد قتلوا، وثلاثين ألفاً قد جرحوا، وعشرين ألفاً قد وضعوا رهن الاعتقال دون محاكمة)، كما أن حظراً طويلاً ووحشياً على التجوّل يُفرض لإنزال عقوبة جماعية بالسكان، وتدمر البيوت، وتطلق قنابل الغاز على النساء الحوامل ويتعرّضن للضرب، ويركل الصبيان العرّال حتى الموت من قبل الجنود النظاميين، ومع هذا كله تظلّ إسرائيل في نظر الغرب «بلداً ديمقراطياً وقاعدة أمامية للحضارة الغربية».

فماذا يبقى للمرء أن يقوله بصدد هذا الميزان الغربي المزدوج. في ضوء هذا كله يصبح من غير المستغرب أن يمدّ الإسلام

السياسي المتطرف جذوراً له في جميع أرجاء العالم بعد أن غدّاه ظلم تاريخي، وفقر مدقع، وإحساس طاغ بالعجز. إن الغرب نفسه مسؤول إلى أبعد الحدود عن تفشّي هذه الظاهرة، فقد عمد إلى التدخّل في شؤون المسلمين وإلى الإطاحة بالحكّام الوطنيين (مثلما فعل في إيران عام 1953) وإحلال حكّام دمي محلّهم، وإلى دعم غير شريف لممارسات إسرائيل وتجاوزاتها، وإلى استنزاف موارد المسلمين، وإلى التآمر لإبقاء العالم الإسلامي مستعبداً اقتصادياً وثقافياً وسياسياً. إن الغرب حين فعل كل ذلك بنا فإنه جعلنا على الصورة التي نحن عليها. لقد جعلنا حائقين لا نغفر.

ما أجمل أن يكون المرء في انكلترا! (*)

في عام 1980 بلغت الثانية والعشرين. وعلى أثر زواج فشل في بيروت التي مزقتها الحرب الأهلية، وضعتُ نصب عيني الحصول على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة (كامبردج). وكنت قد عملت ووفرت بعض المال لهذه الغاية، وتأمّن لي الالتحاق بإحدى كليات الجامعة وهي (كلية يسوع). وكان لديّ موضوع لأطروحتي يتناول صورة الشرق حسبما رسمتها في القرن التاسع عشر الروايات، وكتب الرحلات، والدراسات، واللوحات في كل من بريطانيا وفرنسا.

كنت أرى أن معظم الصور الخاطئة التي أعطيت عن العالم الإسلامي، وكذلك الكراهية الشديدة التي نُحِصَّ بها، والتي كنت قد تبيّنتها في أميركا وفي أماكن أخرى، إنما صاغها جميعاً تراث أدبي وفني ازدهر في ظلّ رعاية الإمبريالية. أي أن الثقافة، بعبارة أخرى، كانت مرتبطة بالاستعمار ارتباطاً صميمياً، كما أنها كانت واقعة تحت تأثير طاغ لحقائق القوة. فعندما صوّر الكُتّاب والرّسّامون الشرق مكاناً للعنف والجنس والكسل والتعصّب، إنما كانوا يسبغون الصدقية على الفكرة القائلة بأن أهل الشرق ليسوا مؤهلين لحكم أنفسهم، وبذلك كانوا يبرّرون تمهيد الطريق، ولو بصورة غير مباشرة، أمام مجيء جيوش أوروبا وموظفيها الاستعماريين. وكانت صورة النساء الشرقيات بالذات في

(*) عنوان قصيدة للشاعر البريطاني الرومانسي روبرت براونينغ (1812 - 1889) (المترجم).

كتابات (ريتشارد بورتون) الإباحية، أو حسبما رسمه فنان مثل (جيروم) الذي جعله مجرد جوارٍ عاهرات أو حظيات مستقلقيات على سجاجيد تركية وما شابه، كانت هذه الصورة، في اعتقادي، من اختلاق الخيال الأوروبي ولا تمت بصله إلى الحقيقة إلا من بعيد، كما أنها كانت تخدم أغراضاً سياسية لا فنية.

وقد أمضيت ثلاث سنوات في كامبردج سلخت معظمها في غرفة الكتب والمطبوعات النادرة بمكتبة الجامعة أتملى من الكتابات الفيكتورية الإباحية. وتقدّمت بأطروحتي المعنونة «أساطير أوروبا عن الشرق: لَفَق تَسُدُّ»⁽¹³⁾ إلى مجلس الدراسات العليا عام 1983. ومن ثم مكثت أنتظر تعيين الأعضاء المتحنيين من قِبل (لجنة الدرجات العلمية للغة الإنكليزية) وهي الهيئة التي تدير شؤون كليتي.

كانت كلية اللغة الإنكليزية بكامبردج في بدايات الثمانينيات في حرب مع نفسها. فقد تعرّض (ريموند وليامز) و(فرانك كيرمود)، وهما من قدامى الأساتذة ذوي الميول اليسارية الإنسانية الذي لا تنفصل عندهم دراسة الأدب عن فروع المعرفة الأخرى التي تسبر غور المجتمع، لهجوم شنه عليهما (كريستوفر ريكس) أحد كبار أعضاء كلية اللغة الإنكليزية وآخرون من أكاديميي جماعة (اليمين الجديد) الذين انتهجوا، حسبما بدا لي، في محالة الدراسات الإنكليزية نهجاً يتّسم بضيق الأفق. وهكذا أحسّ، على سبيل المثال، موسوعي عالمي كبير ذو معرفة

(13) رنا قباني، «أساطير أوروبا عن الشرق: لَفَق تَسُدُّ» (بالإنكليزية)، منشورات دار (ماكميلان) البريطانية، 1986، ودار (أنديانا يونيفرستي) الأميركية، 1986، ومنشورات (باندورا)، (بالإنكليزية - طبعة شعبية)، لندن، 1988، ومنشورات (دار طلاس)، دمشق، (بالعربية)، 1988، ترجمة الدكتور صباح قباني.

شمولية هو (جورج ستاينر) بالامتعااض حيال ذلك التوجّه القصير النظر فغادر إلى مكان آخر.

ووجّه «نقاد الأدب التاتشيريون» سهامهم نحو هدف آخر هو (إدوار سعيد) أستاذ اللغة الإنكليزية والأدب المقارن في جامعة (كولومبيا) الذي شدّد في كتابه الرائد «الاستشراق»⁽¹⁴⁾ المنشور عام 1978 على أن الغرب هو الذي «اخترع» الشرق من أجل إحكام القبضة عليه، وكان كتابه هذا هو الذي حملني على القيام بتحقيقتي الخاصة في هذا الميدان. وكان سعيد موضع نفور المحافظين في كامبردج لأنه أقحم السياسة في الأدب وهو أمر يعتبرونه من المحرّمات. ولكونه فلسطينياً فإن النقمة زادت عليه.

وكان أبرز منتقدي سعيد هو (ريتشارد لاكيت) الأستاذ في كلية (المجدلية) والمختصّ بشعر القرن السابع عشر، وكان قد كتب هجوماً فظاً على كتاب «الاستشراق» في مجلة (كامبردج) الفصلية تهكّم فيه على سعيد وقال عنه إنه يعاني مثل جميع الشرقيين من جموح عاطفي مفرط، وليس بمقدوره القيام بأي تحليل عقلاني. وكان من الطبيعي أن يتملّكني ذعر بالغ حين علمت أن (كريستوفر ريكس) اقترح اسم (ريتشارد لاكيت) هذا على (لجنة الدراسات العلمية) ليكون ممتحناً داخلياً^(*) لأطروحتي، وذلك نظراً للآراء التي عبّر عنها حيال كتاب «الاستشراق». وتساءلت: إذا كان سعيد قد مُزّق إرباً، فما الذي ينتظرني أنا؟ وكان لديّ سبب آخر للقلق لا لكوني عربية أكتب بنبرة معادية للغرب فحسب، بل لأنني أكتب مدافعة عن حقوق المرأة في وقت كان فيه (لاكيت) نفسه

(14) إدوار سعيد، «الاستشراق»، منشورات روتلج وكيفان بول، لندن، 1978.

(*) أي من هيئة جامعة كامبردج نفسها ومن إحدى كليّاتها (الترجم).

وكلية (المجدلية) القادم منها جميعاً معروفين بكرهما للنساء. إلا أنه كان لدي بعض الأمل في الممتحن الخارجي القادم من جامعة «أدنبره» (ف. ج. كيرنان) نظراً لأن كتابه (سادة الجنس البشري)⁽¹⁵⁾ يمكن اعتباره سابقة ملطّفة لكتاب إدوار سعيد.

عقد امتحاني الشفهي في غرفة مغطاة جدرانها بالخشب تقع إلى جانب كلية (المجدلية)، ولم تكن مخاوفي لتزول عندما حيّاني (لا كيت) بقوله: «أوه! أنت إذن بيضاء، لقد كنا نظنك امرأة سوداء». ثم ما لبث أن أوضح موقفه بصورة لا لبس فيها حين قال إن ما كتبت يكشف عن كراهية واضحة للغرب فكيف لي أن أتوقّع حقاً أن تكافئني كلية غريبة مثل (كامبردج) على ذلك وتمنحني درجة علمية؟ وكان (كيرنان) أكثر تعاطفاً معي إلا أنه لم يستوعب ما أعنيه فيما كتبت إذ اعترف بأنه يحيرته قولي إن الأوروبيين قد «اخترعوا» الشرق الشهباني. وأضاف موبّخاً: «نعم. هناك حريم ونساء أسيرات. لقد رأيتهنّ بأّمّ عيني في الهند». وكانت النتيجة أن رسّبي (لا كيت) في حين أن (كيرنان) نجحني. وعندما وجدا أنهما غير قادرين على أن يقنع أحدهما الآخر بوجهة نظره قرّرا تعيين ممتحنين جديدين، ثم ممتحنين آخرين غيرهما حتى بلغ عدد الذين عُيّنوا لهذا الغرض وتناوبوا على قراءة أطروحتي ووضع التقارير عنها ثمانية ممتحنين. واستغرق التصارع على الأطروحة ثلاث سنوات كاملات (أي ما يماثل المدّة التي قضيتها في كتابتها). وفي نهاية المطاف مُنحت شهادة الدكتوراه.

كانت حياتي خلال سنوات الانتظار تلك يكتنفها الضياع،

(15) ف. ج. كيرنان، «سادة الجنس البشري: المواقف الأوروبية حيال العالم الخارجي في العصر الإمبريالي»، لندن، 1969.

وتوضّحت فيها بصورة جلية خيبة ألمي في جامعة (كامبردج) ورحتُ
أتساءل: هل ما حدث لي هو نموذج لـ «النزاهة البريطانية»؟ لقد كنت
مسكونة بشبح طالب سوداني قضى خمس سنوات في محنة عاطفية
ومالية من أجل أن يُتم أطروحته، ولكنه رُسب دونما تردّد؛ وعندما لم يقوَ
على مجابهة الإذلال في بلده إذا ما عاد إليها صفر اليدين، أقدم على
الانتحار في غرفته بالكلية. ومن هنا أصبحت أعتقد، خطأً أو صواباً، أن
لون بشرته، لا مستوى كتابته، هو الذي لم يُرضِ ممتحنيه. وعندما تبينَّ
لي بصورة قاطعة كيف أوصلوني، أنا الأخرى، إلى شفير الهاوية،
انتهيت إلى أن السنوات الثلاث التي قضيتها أحارب من أجل الحصول
على شهادتي أكسبتي من المعرفة أكثر من تلك التي اكتسبتها خلال
سنوات إعداد الأطروحة نفسها.

إن تجربتي الجامعية فتحت عيني على حقائق لم أكن لأدركها لو أنني
لم أمرّ بما مررت به. لقد جعلتني تلك التجربة على غير الصورة التي
كنت عليها يوم بدأتها. وتشاء المصادفة أن ألتقي في ذلك الوقت
بالذات بمواطن كان قد نال شهادة الدكتوراه من جامعة أوروبية، غير أنه
اتخذ موقفاً مغايراً تماماً لموقفي، كما أن النهج الذي سلكه لم يكن، هو
الأخر، لتتقبّله عقليتي: فلقد اختار أن يذوب في مجتمعه الجديد بدل أن
يواجهه. انحدر مهتد من أسرة مشابهة لأسرتي، وتعارفنا في أيام المراهقة
بدمشق. ولما كانت تربطني بشقيقته صداقة حميمة وكانت تصل بين
أهلي وأهله صلة قريبي بعيدة فقد شُحح لنا أن تكون بيننا علاقة عائلية.
ومن ثم فقدت كل أثر له لأكثر من عشر سنوات.

وجاء تلاقينا من جديد في وقت مبهج من حياتي. إذ كنت حرّة
أكثر من أي وقت مضى: فأنا لم أعد طالبة، وكنت أكسب عيشي

بنفسي، ولم أكن مرتبطة بأحد، وأعيش وحدي بعيدة عن وطني، وكنت كثيرة الأسفار، وأحس بأنني غير مثقلة بأي شيء وكأني بلا جذور. ولم أكن قد اخترت الانتماءات التي جعلتني فيما بعد على ما أنا عليه اليوم.

حين وصلت إلى مطار (بيرينيان) رنوت بيصري باحثة عن ذلك الفتى الذي سبق وعرفته. ها هو ذا! لقد أصبح رجلاً لا يمكن تمييزه عن أولئك السيّاح الأوروبيين الذين ملأوا بهو الوصول. كان يرتدي قميص (تي شيرت) بلا أكمام وبنظوناً قُصّقت أطرافه، فلم يعد يشبه ذلك الفتى الأنيق الذي كنت أعرف. وكان ترحيبه بي بالفرنسية متبسّطاً مثل ملابسه. وأمّا أنا فكنت غاية في الأناقة، ومرتدية أفخر ثيائي. ولمّا كنت لم أزل تلك الفتاة الرصينة التي كانت تجلس في بهو دار أهله بدمشق، فقد مددت يدي مصافحة، واستفهمت عن صحته باللغة العربية.

وأحسست على الفور أنني جعلته على غير سجيته، ولم أفهم تماماً سبباً لذلك حين استرجعت الأمر فيما بعد. إذ كان قد فعل كل ما بوسعه ليقطع أواصره بأهله، وبوطنه الأم، وبلّغته، وبالدين الإسلامي الذي أنشئ عليه. ولمّا كان حريصاً على الابتعاد عن تراثه فإنه لم يخالط أياً من مئات الطلّاب العرب الذين كانوا يدرسون مثله في جامعة (مونيليه). لقد أصبحت فرنسا هي موطنه الدائم ولم يكن يضع في حسابه أن يحلّ محلها عنده أي بلد آخر.

وكان قد عقد زواجاً صورياً مع امرأة فرنسية بغية الحصول على الجنسية الفرنسية التي كان ينشدها. وأصبح الآن يدعو نفسه (مايك). لقد اتخذ قراراً نفسياً حاسماً في انتهاج طريق لا رجعة عنه، كما أن

نواياه وأهدافه جعلت منه إنساناً فرنسياً بحتاً. وحين التقيته كان منخرطاً في علاقة مع امرأة فرنسية مطلقة من أسرة بورجوازية غنية، وكانت تكبره سنّاً، وعلى وشك أن تنجب منه ولداً، ولكنه وجد أنه لا يستطيع أن يرتبط معها بأيّ التزام حقيقي. ومع ذلك فقد كانت ذات أهمية بالنسبة إليه لأنها كانت تلبي له حاجة نفسية تعينه في التمرد على أسرته، فهو يعلم أن أمه وأباه يرفضان كل ما أقدم عليه، غير أن ذلك ما كان إلاّ ليزيد من عزمه على التحلّل منهما.

كان أهل مهتد من أتقياء المسلمين الذين يرون في الإثم الجنسي أمراً يصعب عليهم فهمه أو التسامح فيه. ولا شك أنهم كانوا يتمنون لو أن ابنهم قد تزوّج من امرأة مسلمة، وعندما لم يفعل توقّعوا أن يتزوّج من صديقتة الفرنسية. وكان رفضه لذلك بمثابة إحراج اجتماعي لهم أشعرهم بالمرارة لكونهم يعيشون في مجتمع لا يتسامح في تلك الأمور. لقد حذا ابنهم حذو الآلاف من الشبّان المسلمين الذين جاؤوا من الدول النامية، واختاروا العيش في الغرب، ولم يعد للمعتقدات التي كانوا يقدّسونها أي قيمة لديهم. ثم ما لبث مهتد أن قطع آخر صلة له بترائه حين قرّر أن يتوقّف عن القيام بزياراته السنوية لوطنه.

لقد رحت أتساءل: ترى هل كان ذوبان هذا الشاب العربي في المجتمع الجديد أفضل من موقف المجابهة الذي اخترته؟ وأنا لم أكن لأرفض آراءه فحسب، بل كنت لا أعرف كيف توصل إلى مثل هذا التحوّل الكامل. وتساءلت أيضاً: ألم يكن ثمة طريق وسط؟ وهل للمرء أن يعيش في الغرب عيشة مشاركة تامة دون أن يغيّر ذاته كما فعل مهتد؟ كان هذا هو اللغز الذي سكنني لسنوات عديدة.

لقد أيقظت قضية سلمان رشدي في نفسي هذه التساؤلات من

جديد. ولاحظت أن بعض من أعرف من المثقفين المسلمين الذين يعيشون في إنكلترا وجدوا أنه من الضروري أن يتجهجوا على الإسلام في سبيل أن يواكبوا موجة إدانة المسلمين السائدة، ويبدو أنهم ينطلقون من مقولة «إذا لم تستطع التغلب على الآخرين فلتنضمّ إلى صفوفهم». وهو موقف لم أكن أميل أبداً إلى الأخذ به.

خيانة الكتاب(*)

جعل بعض المثقفين المسلمين ذوي الهوى الغربي من التناوش الذي وقع بين سلمان رشدي وآية الله الخميني نموذجاً للتضارب الذي يزعمون أنه قائم بين الفنّان وبين رجل الدين، كما ادّعوا أن السلطة في البلدان الإسلامية لاتسامح مع الإبداع الفني ولا مع أي نوع من التعبير الحر عن الفكر الإنساني. ومن هذا المنطلق قيل إن رشدي أدين بسبب براعته الفنية وموهبته الأدبية، وكانت تلك إحدى مقولات مسرحية «الليالي الإيرانية» التي هيأها على عجل (طارق علي) و(هاوارد برنتون) حيث نرى عمر الحيام يصطدم في أحد مشاهدتها بتصلب رجال الدين.

لقد تصادم الفن والدين بالتأكيد في نطاق المجتمع الإسلامي من قبل، ومازالا يتصادمان؛ إلا أنه ليس دقيقاً الادعاء بتحقق الغلبة دائماً لأحدهما على الآخر، فمط العلاقة الذي ساد بينهما قضى بأن يتعايشا بصعوبة جنباً إلى جنب، وأن يبقى التصادم بينهما سجالاتاً: ففي مرة يكون النصر حليف واحد منهما، ثم لا يلبث أن يحالف الآخر في

(*) «خيانة الكتاب» هو عنوان أهم أعمال الكاتب الفلسفي الفرنسي (جولييان بندا) (1867- 1956) الذي كان مدافعاً قوياً عن العقل والفكر ضد الرومانسية والانجراف مع العواطف. وقد دان في هذا الكتاب الصادر عام 1928 أولئك الذين يضعون الفكر في خدمة الأهواء العنصرية والسياسية ولا يكرسونه لخدمة القيم الروحية والإنسانية (المترجم).

جولة تالية. وعلى سبيل المثال قام رجال الدين بعد الثورة الإيرانية بمحاولة لطّي التراث الفنّي لإيران ما قبل الإسلام، وكذلك لمحو تراث العلمانيين من الشعراء الذين جاؤوا بعده مثل عمر الخيّام والفردوسي، إلا أن هذه المحاولات اصطدمت بمقاومة بالغة من جانب الجمهور الإيراني فكان لا بدّ من تخفيف تلك المحاولات، بل إنه جرى التخلّي عنها تماماً تلبية للمشاعر الشعبية⁽¹⁶⁾.

ويمكن إيضاح ذلك أيضاً من خلال تجربة مرّت بها أسرتي التي أنجبت اثنين من الكتّاب: أحدهما كان مسرحياً والآخر شاعراً. ورغم أن عدّة أجيال فصلت ما بينهما، إلا أنهما كليهما تعرّضا لغضب السلطات الدينية، ولكنهما تابعا ما قاما به، وربحا معركتهما في نهاية الأمر. كان أحمد أبو خليل القباني أبرز المبدعين من أجدادي، فهو الذي أسّس أول مسرح غنائي في العالم العربي عام 1878، ويعتبر بحق رائد الدراما العربية. ففي صدر شبابه تخلّى عن عمل مريح ومحترم ليكرّس نفسه لكتابة المسرحيات، وإخراجها، والتمثيل فيها، وهو أمر كان يُعتبر معيباً ومستهجناً في زمن وُصم فيه الفنّانون بأنهم لا أخلاقيون. ولما كان أبو خليل غير قادر على أن يأتي بالنساء للقيام بالتمثيل على خشبة المسرح فقد استعان بالشبّان ليقوموا بالأدوار النسائية، تماماً كما كانت العادة المتّبعة في العصر الإليزابيتي بإنكلترا. وبعد أن استطاع أبو خليل تعليم نفسه اللغات الأجنبية عمد إلى ترجمة عدد من أعمال موليير وراسين وشيكسبير إلى العربية. ولما كان موسيقياً ومؤلفاً غنائياً موهوباً فقد كتب

(16) شيرين هنتر، «الإسلام في السلطة: حالة إيران»، في مقالة (شيرين هنتر) المنشورة في البحث المعنون «سياسات الإحياء الإسلامي: التنوّع والوحدة»، في منشورات (مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية)، واشنطن، 1988.

كثيراً من الألحان والأغاني التي أصبحت جزءاً هاماً من التراث الموسيقي العربي، كما أُلّف عشرات المسرحيات الموسيقية التي أنتجها وأخرجها بنفسه وكانت البداية الأولى للمسرح الغنائي العربي الحديث. وقد أدّى نشاطه الرائد هذا إلى تعاطف حماسي معه في صفوف الشباب بدمشق التي كانت حينذاك مدينة على غاية من التزمّت والمحافظة.

ولذلك لم يكن من المستغرب أن يثير القباني غضب المؤسسة الدينية التي اتهمته بأنه يفسد شبّان البلد. وحرصاً على مكارم الأخلاق حرّض رجال الدين صبية الأزقة على شتمه بالألفاظ البذيئة، وقذفه بالبندورة الفاسدة، ثم بالحجارة، وانتهى بهم الأمر إلى إشعال النار في مسرحه الحبيب. وهكذا اندثر، بغمضة عين، كل ما بناه، ووجد نفسه لا يملك شيئاً بعد أن أنفق كل ماله على العمل المسرحي. فما كان منه، بعد أن تملّكه الأسى والقنوط، إلّا أن فرّ إلى القاهرة التي كان يأمل أن يكون جوّها أكثر تحمّراً، وهناك أعاد إشادة مسرحه. وقد أصاب أول الأمر نجاحاً باهراً، غير أن حاسديه وبعض رجال الدين تكاتفوا ضده وأشعلوا النار في مسرحه مرّة أخرى. ولعلّ من دواعي السخرية أن أبا خليل كان رجلاً تقياً ولم يجرّ قلمه قط بأية عبارة ملحدة أو مستهترّة بل كانت مسرحياته تتميّز بمستواها الرفيع، وبتمجيدها للتاريخ العربي وللشيم الإسلامية. وعاد القباني إلى دمشق مريضاً مدحوراً، ولم يلبث أن مات بالحُمى عام 1902. واليوم تُخلّد كل من القاهرة ودمشق ذكراه، كما أن سوريا أطلقت اسمه على أهمّ مسرح فيها.

عندما كانت جدّتي لوالدي طفلة عاصرت نهاية الرجل الذليلة، ولكنها لما كبرت شهدت كيف أعيد الاعتبار إليه وإلى سمعته. ولهذا

كان بمقدورها أن تعالج نزاعاً آخر بين الفن والدين انخرط فيه هذه المرّة أحد أفراد عائلتها - هو ابنها بالذات.

في عام 1940 عندما كان ابنها نزار قباني، الذي هو عمّي، في السابعة عشرة من عمره، جاءها ذات يوم وطلب منهما ثلاثمائة ليرة، وكانت تشكل حينذاك مبلغاً طائلاً. وحين أدهشها طلبه سألته لماذا يريد مثل هذه الثروة الصغيرة فاعترف لها بأنه كتب سرّاً ديواناً شعرياً وبأنه يرغب في نشره. ورغم أن جدّتي لم تكن تقرأ ولا تكتب، على شاكلة كثيرات من نساء جيلها، فإنها كانت على درجة عالية من الذكاء وكان لديها ميل موروث إلى الفن. فما كان منها إلا أن نزعت من معصمها إسوارة ذهبية ثمينة ودفعته إليه قائلة: «انطلق بها إلى الجواهري اليهودي في آخر الشارع واحصل على ما تريد من مال».

ولم يلبث ديوان نزار أن ظهر في بعض مكاتب المدينة وقد بدت على غلافه صورة تتسم بالجرأة لامرأة رسمها له أحد أصدقائه الفنّانين، وكان يحمل عنواناً مثيراً هو «قالت لي السمراء». وأمّا قصائد الديوان فكانت أكثر إثارة للعواطف إذ إنها كانت أولى أشعار الحب المكشوفة في الأدب العربي الحديث وقد كتبها فتى يكاد يكون صيباً!

مضى يوم أو يومان على هذا الحدث الذي لم يكن قد انتهى بعد إلى علم جدّي. وبينما هو عائد في المساء إلى المنزل استوقفه نفر من رجال الدين الغاضبين، وصاح به أحدهم: «أفلا تخجل يا أخانا من السماح بخروج هذه القاذورات من بيتك؟».

كان جدّي توفيق القباني أحد شوامخ المجتمع، ومن أبرز العاملين في

الحركة الوطنية ضد الانتداب الفرنسي، وكان يعترّ بكونه مؤسساً لأول
معمل في سوريا لصنع الملابس والشوكولاته والنوكا. ولذلك فوجئ
بكتاب يقذف في وجهه وقد حمل اسم ابنه على الغلاف المبهرج. فما
كان منه إلا أن سحب حزامه واندفع غاضباً نحو البيت ليفهم أولئك
الناس أن ابنه سيلقى ما يستحق من عقاب.

وكان أن تناهت إلى جدتي هذه المواجهة التي حدثت مع رجال
الدين قبل وصول جدّي، فعمدت، وقد توقّعت حدوث المتاعب،
إلى تهريب نزار إلى منزل شقيقتها لبيت عندها حتى الصباح. وما
إن بلغ جدّي بيته حتى صاح بأعلى صوته: «فايزة. أين هو ابنك
الفاسد؟ ولماذا أكون آخر من يعلم بما يجري في هذا البيت؟» ثم اتجه
نحو غرفة الجلوس، وصفق الباب بشدّة وراءه، وجلس يقرأ في
الكتاب الذي ألّفه ابنه. وفي مساء تلك الليلة تناول عشاءه وهو
صامت، ومن ثم صعد إلى القسم العلوي من البيت فتوضّأ، وصلّى،
ثم ارتدى أفخر ثيابه، واعتمر طربوشه، وقصد المسجد ليقول لأولئك
المشايخ ألا يتدخلوا في شؤونه فهو يرى أن أشعار ابنه لا تسيء إلى
الله في شيء.

إن عمّي نزار ربما يعتبر اليوم أكثر شعراء العرب شعبية، ولكن شعره
محظور في نصف أقطار الوطن العالم العربي.

إنني لا أعتبر قضية سلمان رشدي مسألة صراع بين الإبداع وبين
الجمود الديني. ففي ضوء طبيعة نيل رشدي من الإسلام أصبح من
المستحيل على العربي أو الآسيوي أن يقرأ كتابه على أنه مجرد رواية.
كما أنه لا مجال للقول بأن القرّاء المسلمين أخفقوا في تقدير براعته الفنية
(فأنا مثلاً كنت من الذين أعجبوا طويلاً بفنّه، ولكنني لا أزال أرى أن

«آياته الشيطانية» تتضمن رسالة سياسية سلبية أجهزت على إمكانية أن أقرأها بتجرد).

أمّا أن يكون سلمان رشدي روائياً موهوباً فليس عندي أدنى شك في ذلك. وأنا لا أنسى أبداً حماستي حين قرأت روايته «أطفال منتصف الليل» التي بيّنت إمكانية إرضاء نوعين من القراء في آن: قراء الكتب الفائزة بالجوائز الأدبية الذين يريدون نصّاً أدبياً ممتعاً يتجلى فيه الإبداع، وأولئك الذين يتطلعون إلى رسالة سياسية يقدمها النصّ. وكان هذا الإنجاز الرائد الذي حقّقه الرواية بمثابة خطوة متقدمة حاذقة لجعل اللغة الإنكليزية تعبّر بدقة عن واقع عالم لم يستطع أحد تصويره من قبل وكان مجهولاً لدى الغرب. وهكذا رأيتني لا آخذ «أطفال منتصف الليل» على أنها أسطورة براءة بل على أنها وصف دقيق لواقع سياسي معقد أنتمي إليه.

وكان من شأن هذه الرواية التي شهرت سلمان رشدي، أن جعلته يكسب قلوب القراء الغربيين وغير الغربيين جميعاً، وهو أمر أخفقت «الآيات الشيطانية» في تحقيقه. ويعود إخفاقها إلى أن الشكل الجمالي والمضمون السياسي اللذين كانا مترابطين تماماً في «أطفال منتصف الليل»، انفصما، وأخذ كل منهما فريقه من القراء، وكان كل فريق يغلي منه غضباً. ويبدو أن اهتمام «الآيات الشيطانية» الوحيد انصبّ على إرضاء القيم الأدبية الغربية دون غيرها، وهذا ما أدّى بطبيعة الحال إلى شجب موقف المؤلف السياسي. فنغمة هذا العمل لم تقو على العبور إلى مختلف الثقافات والتنقل فيما بينها. وبالرغم من وجود تراث طويل من الكتابة الساخرة في التاريخ الأدبي الإسلامي، إلا أن الذي حدث هو أن المسلمين لم يستطيعوا أن يقرأوا الرواية على أنها نقد جاد بل وجدوا فيها استهزاء مستهتراً كشف عن عمق الهوة التي اتسعت بين رشدي وبين جذوره.

كما بيّنت الرواية أيضاً أن رشدي عندما أصبح يكتب الآن لدغدغة المشاعر الغربية فإنه أسقط من حسابه تماماً مشاعر المسلمين والشرقيين.

إن أيّ نصّ إذا ما جرى تناوله من زاوية الفهم الأدبي الصرف فإنه يتيح عندئذ للمؤلف حرية مطلقة في أن يكتب ما يشاء، في حين أن قراءة «ملتزمة» تلحّ على وجوب أن يكون للنصّ مدلول سياسي وأن يتّسم بالمسؤولية السياسية. وأمّا «الثقافة العليا» في الغرب فهي تفترض في الأدب أن يسمو فوق ترهات السياسة، الأمر الذي يجرّد الأدب من أيّ معنى سياسي حقيقي. وأمّا بالنسبة إلى القراء غير الغربيين فإنّ المألوف لديهم هو أن يكون للنصّ سمة أدبية وسياسية في آن. ومثل هذه الرؤية للأدب تشجّبها بعض الأوساط في الغرب إذ ترى أنها بدائية، واستبدادية (قد تصل إلى حدّ الستالينية)، وأنها ليست إلاّ تعبيراً روائياً ساذجاً في سياساتٍ لا تتحوّل ولا تريم.

ومهما يكن من أمر فإنّ الذين يعتقدون أن القراءة السياسية للنصّ تنتقص من قيمته إنّما يرون ذلك لأنّ لديهم نوعاً من التقييم يجعلهم يتمسّكون بأنّ ألواناً معيّنة من التجارب الأدبية هي وحدها الصالحة دون سواها. وتشكّل هذه الرؤية بحدّ ذاتها حكماً سياسياً، إن لم نقل رجعيّاً، مع أنّهم لا يريدون أن يعترفوا بذلك. وهذا يعني، بصريح العبارة، أن الأبوة الغربية البيضاء والتراث الذي أوجدته هما وحدهما الجديران بالاحترام. ولا بدّ من التذكير بأنّ هذه النظرة الاستعلائية القاطعة بحقّ الثقافات الأخرى جرى ما يماثلها حين ازدرّيت أيضاً الكتابات النسائية الإبداعية ذات المضمون السياسي.

وعندما يشقّ كاتب من الدهماء طريقه إلى الشهرة فإنّ شعوراً غامراً بالبهجة يتملّكه لأنه قد تمكّن من تخطّي صعوبات هائلة. ولكن مثل

هؤلاء الكتّاب الذين تأتيهم الشهرة على حين غرة، إنما يخدعون أنفسهم عندما يصدّقون أن ضمّهم إلى المؤسسة الثقافية الغربية قد ضمنوه وفق شروطهم هم. فهذا لا يعدو أن يكون وهماً، لأن الكاتب الذي يُعطى في بداية الأمر مجالاً واسعاً ليقول ما يشاء، لا يلبث أن يجد نفسه بمرور الوقت مطوّقاً، ثم متباعداً دون إرادته عن السياسة، ويصبح بالتالي رهن إرادة الآخرين. وقد يوصف هذا القول بأنه نوع من الحوّل الفكري، في حين يصبح له ما يبرّزه إذا ما أمعن النظر في دراسة الأساليب التي تعمل بها السياسة الثقافية. ومن هنا فإنه حين يدّعي المسلمون بأن ثمة مؤامرة تختبئ وراء «الآيات الشيطانية» فإنهم يعبرون عمّا يعتلج في صدورهم، بأسلوب ربما يكون فجاً ولكنه لا يجافي المنطق، حيال واقع ثقافي معقّد.

إن نجاح الكاتب في العبور إلى ثقافات أخرى يشكّل معضلة بالضرورة، بل يصبح خطراً على الكاتب نفسه، لأنه قد يجعل شعوره بهويته الأصلية يتآكل، وقد ينتهي نجاحه هذا إلى الحلول محلّ هويته تلك. والمؤلّفون بالطبع واعون لهذه المشكلة غير أنهم يقبلون حتميتها ويراودهم في ذلك أمل مثالي بأن يتحقّق التسامي فوق الانقسامات الثقافية. ولكن النجاح في أغلب الأحيان يفترض سلفاً أن يتنكّر المرء لجذوره، بل قد يكون النجاح في الغرب هو المكافأة على هذا التنكّر. ويبدو لي أن القرار الذي اتخذه رشدي (ربما عن غير قصد) في «الآيات الشيطانية» بالارتداد عن عمل سياسي كان قد عُرف به وبالتراجع عمّا كان يناضل من أجله، كان نتيجة مؤسفة لنجاحه، فقد أدخل هذا النجاح في روعه أنه لم يعد عرضة للمساءلة أمام قرائه غير الغربيين.

إن المساءلة لا تعتبر استبداداً ولا تدخلاً في العملية الفنية، وإنما هي واجب يدين به الكتّاب نحو قرائهم وتراثهم. والكتّاب الذين يتعامون

عن هذه المسألة إنما يغامرون بأن يصبحوا منغلقيين على ذواتهم ومنعدي المسؤولية السياسية، ذلك أن كونهم آتين من داخل البيت الذي يتكلمون عنه ويملكون معرفة فريدة به يمنح كلامهم صدقية لا يملكها أحد من الغرباء. ومن هنا يكمن خطر أن تُقرأ نصوصهم على أنها حقائق لا يشوبها باطل. وعلى سبيل المثال، افترض الناس أن الشهيرات من النساء اللواتي يهاجمن حركة المساواة النسائية يتحدثن عن معرفة لأنهن نساء، ولذلك تصبح أقوالهن حرة بأن تُحمل على محمل الجد. وقد حدث الأمر ذاته مع ف.س. نايول، إذ بالرغم من أنه كاتب موهوب، فإن كتاباته عن هند أجداده تكشف عن انسلاخه عنها وقرفه منها، وتعكس تعلقه بغرب نظيف معقم، ولذلك يأخذ الغرب شهادة نايول على أنها الحقيقة الصرفة. وأخشى أن تكون الظاهرة ذاتها هي التي تحدث أيضاً مع رشدي.

ثم هناك ترف اليأس الفكري الذي يتمرغ فيه بعض الكتّاب حالما يصبح ذلك بمقدورهم، فهم يروحون ينظرون إلى الحياة نظرة ممعنة في التشاؤم السياسي، ولا يرون أي أمل في أن تتغير الأمور أو تتبدل، الأمر الذي يجعلهم، منطقياً، أصحاب شك في جدوى أي أمر، وليس عندهم ما يقدسونه أو يحترمونه، ويسخرون من الإيمان بأي شيء، ولا سيما الإيمان بالله وبالطيبة الإنسانية. وتسود هذه الرؤية القائمة اليائسة معظم الكتابات الحديثة، وسلمان رشدي نفسه يؤكد أن «الآيات الشيطانية» تدرج في نطاق هذا التراث الحديث⁽¹⁷⁾.

ورغم هذا كله فثمة أساليب أخرى لرؤية العالم. وكثيرون من

(17) مقابلة مع سلمان رشدي في 27/1/1989 على القناة الرابعة بالتلفزيون البريطاني «برنامج ملف باندونغ».

الكتاب يشجبون تلك الانهزامية في الحديث عن التجربة، لأن هذه الانهزامية تبعث في نفوسهم الاشمئزاز لكونها تنكر قدرة الحياة على التجدد والنهوض. وما دام المرء لا يمعن في الإصرار على أن العالم قابل للتغيير والتحوّل فإنه سيبقى هو الضحية لهذا العالم. ويدكرنا (آرثر ميلر) في مسرحية «بعد السقوط» بأنه يتعيّن علينا بطريقة ما أن نغفر ونتسامى فوق ماضيها الملتطخ بالقتل وبالدماء إذا ما أردنا الاستمرار في العيش في عالم ما بعد المذابح الجماعية.

لقد أزف الوقت حقاً كي نتجاوز تاريخنا. ففي هذا العالم المتداخلة أجزاءه، ينبغي أن يُشجب نهج «المواجهة» لأنه أصبح نهجاً بالياً بسبب كثير من دلالاته المرفوضة، فهو يعني شتّى الحرب على «الآخر» وإنكار شرعيته، وازدراءه، وتجريده من إنسانيته. ولكن نهج «الذوبان» ليس أيضاً هو الجواب إذ من السهل أن يتحوّل إلى شكل من أشكال العنصرية المقلوبة التي تسلّم بأن ثقافة ما هي أكثر تفوّقاً على أخرى. ومع ما كنت أكنّه من إعجاب بسلمان رشدي الكاتب فأنا أرفض «آياته الشيطانية»، بل إنني أرى أنها زادت بصورة درامية من حدّة التصادم بين الثقافات، ومن ضراوة نهج المواجهة الذي يؤذي النفس ويلحق بها روح الإنهزامية. ولعلّ أكثر ما يحزنني هو أن هذا الكتاب قد سبّب نكسة لقضية مناهضة العنصرية، وهي القضية التي كان رشدي نفسه أحد أبلغ المساهمين فيها.

الفهرس

- 5 - تصدير جديد خاص بالطبعة العربية الثانية
- 17 - تصدير الطبعة الأولى للترجمة العربية
- 19 - مقدمة
- 21 - 1 - إرث الافترا
- 37 - 2 - تنشئة إسلامية
- 49 - 3 - تهديد من وراء حجاب
- 61 - 4 - أقوال وأفعال
- 75 - 5 - هيّا إلى الغرب
- 93 - 6 - ما أجمل أن يكون المرء في إنكلترا
- 101 - 7 - خيانة الكتاب
- 111 - الفهرس



- د. رنا قباني باحثة سورية تكتب بالانكليزية وتقيم في الغرب.
- ولدت في دمشق عام (1958) وأتت فيها دراستها الثانوية.
- تحمل الماجستير من جامعة (جورجتاون) بواشنطن، والدكتوراه في الفلسفة والآداب من جامعة (كامبريدج) البريطانية.
- منذ إقامتها في لندن أصبحت مرجعاً هاماً تستعين بخيرتها الثقافية والسياسية وسائل الإعلام، والجامعات، والمؤسسات الثقافية في بريطانيا، كما أنّ ولي العهد البريطاني الأمير (تشارلز) يشاورها فيما يتصل بالشؤون الإسلامية.
- تحبر من النشاطات البارزات في حملات الدفاع عن حقوق المسلمين البريطانيين وعن حقوق النساء، والأطفال، والمضطهدين.
- صدر لها في لندن كتابان: أساطير أوروبا عن الشرق - لُفّق تشذ (1986) ورسالة إلى الغرب (1988) اللذين ترجمتا إلى العربية وإلى عدد من اللغات الأوروبية والآسيوية.
- تعكس كتاباتها ومحاضراتها ومدخلاتها الإذاعية والتلفزيونية تمسكها بترائها وجذورها العربية والإسلامية وبموقفها القومي، وتصدهبها لكل ما يسيء إلى العرب والمسلمين بالتجني أو التشويه أو التضليل.

مكتبة بغداد

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>